Al-Dirasat Al-Islamiyyah (Islamabad) 37:1-2 (2002)

الكتابات العربية القديمة حول شخصية الإمام الأعظم أبي حنيفة: رؤية أدبية

شعبان محمد مرسي

حظيت شخصية الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ بإعجاب كثير من الناس. من أجل ذلك كتب المؤرّخون المسلمون ومؤلفوا التراجم عن هذا الإمام الأعظم، فأوجز بعضهم، وأسهب آخرون.

وما كتب عن أبي حنيفة جاء تحت عناوين مختلفة، منها:

سيرة، مناقب، فضائل، أخبار، ترجمة، وهذه إما كتب مفردة مستقلة، أو فصول في كتب الرجال أو الطبقات، مثل طبقات الفقهاء وطبقات الحنفية، وغيرها.

وقد سلك كل كاتب مسلكاً خاصا في تأليفه، غير أن هناك تشابها كثيرا بين هذه المؤلفات، لأن المنابع التي استقوا منها معلومات أصحابها تكاد تكون واحدة.

إن المؤلفات التي سيعتمد عليها هذا البحث هي:

١- **أخبار أبي حنيفة وأصحابه**، لأبي عبدالله حسين بن علي الصيمري المتوفى سنة ٤٣٦هـ.

٢- **تاريخ بغداد**، لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ الجزء الثالث عشر، وهو يحتوي على ترجمة أبي حنيفة.

٣- **مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة**، للموفق بن أحمد المكي المتوفى سنة ٥٦٨هـ.

٤- **مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن**، لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ.

٥- **مناقب الإمام الأعظم**، لمحمد بن محمد بن شهاب، المعروف بابن البزاز الكردري المتوفى سنة ٨٢٧هـ[١].

© Dr Muhammad Hamidullah Library, IIU, Islamabad. http://iri.iiu.edu.pk/

هذه هي المصادر الأولى الأساسية التي تناولت حياة أبي حنيفة بالتفصيل، وقد ألفت في عصور مختلفة، ولذلك فإن كل كتاب منها يمثل رؤية صاحبه لشخصية أبي حنيفة، كما يصوّر طبيعة العصر، واتجاهه في الفكر.

وقبل الدخول في لُبّ الموضوع يجب تحديد هذه المصطلحات:

١- سيرة ٢- مناقب ٣- ترجمة ٤- فضائل ٥- أخبار

لابد من كل ذلك ليكون الكلام واضحا في ذهن المتلقي، قارئا كان أو سامعا؛ والملاحظ الآن هو اضطراب المصطلحات الفنية، مما يسبب تشويشا في العقول، فلا يحدث الفهم، ولا يتم الإفهام.

لنبدأ أولا بتحديد معنى كلمة "سيرة"، ما معناها بالضبط؟ هنا يتحتم استشارة المعاجم اللغوية **أولاً** لمعرفة كيفية استخدام العرب لهذا اللفظ قديما، **وثانيا** لإدراك التطور الذي لحق بمفهوم هذا المصطلح أثناه سير ركب الحضارة الإسلامية.

— ١ —

جاء في **معجم لسان العرب** ما نصه: "والسيرة: الطريقة...، والسيرة: الهيئة. وفي التنزيل العزيز ﴿**سَنُعِيْدُهَا سِيْرَتَهَا الْأُوْلَىٰ**﴾ وسيّر سيرة: حدّث أحاديث الأوائل"(٢).

هذا المعنى اللغوي يقترب منه كثيرا المعنى الاصطلاحي، وهو أن السيرة قصة حياة إنسان ما، تبدأ من ولادته، وتنتهي بوفاته، وهي تبنى على الحقائق(٣).

أما كلمة "ترجمة" فقد وردت في اللغة بمعنى التفسير، ومنها الترجمان وهو الذي ينقل المعنى من لغة إلى لغة أخرى، والفعل المستعمل: ترجمه وترجم عنه أي نقل المقصود من لسان لآخر(٤). ولم يرد في المعجم القديم لهذه الكلمة مدلول غيره، لكن الكلمة استعملت في العصور الإسلامية، ودلّت على التعريف بالشخص؛ ولذلك يقال: كتب التراجم، أي الكتب التي تعرّف بالأعلام، مثل تراجم المحدّثين، والفعل المستعمل للدلالة الجديدة هو: ترجم له، أي عرّف به. وهذا المعنى الأخير هو المتصل بالدلالة الفنية لكلمة ترجمة، إذ تُعرَّف كما يأتي: "هي ذلك النوع من الأنواع الأدبية الذي يتناول التعريف بحياة رجل أو أكثر، تعريفا يطول أو يقصر"(٥).

إن كل كتب الطبقات عند العرب تدخل ضمن التراجم، والغالب عليها الإيجاز. هل يمكن أن يقال: إن التراجم سير مختصرة؟ وكذلك هل يقال: السير تراجم مطولة؟ لا أعتقد ذلك؛ لأن الترجمة تعريف مختصر بالشخص، أما السيرة فهي قصة حياة الإنسان كاملة أو قريبة من الكمال، أو بتعبير آخر: إنها تاريخ إنسان يعنى في كتابته بالتفاصيل والجزئيات المختلفة. والغاية من الترجمة تختلف عن الغاية من السيرة.

وتدل كلمة "مناقب" على الأخلاق الكريمة[٦]، ولا تستعمل في السوء، وإنما يستخدم ضدها، وهو مثالب.

أما "فضائل" فهي جمع فضيلة، ومعناها الدرجة العالية[٧]، أي الكمال النفسي أو الأخلاقي، ونقيض الفضيلة النقيصة. ويلاحظ أن الدلالة متقاربة جدا بين المناقب والفضائل.

و"الأخبار" جمع خبر، أي النبأ[٨]، وهو يحمل معرفة عامة للمستخبر أو المتلقي، وقد يكون الخبر سارّا، وقد يكون محزنا، وكل خبر يحتمل الصدق والكذب.

ـ ٢ ـ

وتقابل مصطلح Biography في اللغة الإنجليزية مصطلحات سيرة وترجمة وأخبار فلان في اللغة العربية، ومثله في الفرنسية Biographie، وكذلك في الإسبانية Biografia. وأصل هذه الكلمة في تلك اللغات من اليونانية القديمة، وهي كلمة مركبة، إذ إن Bios معناها حياة، و Graphein تدل على الفعل يَكْتُبُ، من أجل هذا قيل في المعاجم الأوربية عند تعريف كلمة Biography: إنها تاريخ حياة شخص، أو قصة حياة إنسان ما[٩].

هذا، على حين تقابل لفظة Hagiography أو Hagiografia كلمة فضائل ومناقب؛ فإن هذا اللفظ في اللغات الأوربية معناه: قصة حياة الصالحين، أو تاريخ القديسين[١٠]. وعادة كان يركز الكتاب في هذه السير على فضائل القديسين وكراماتهم وأعمالهم الصالحة. وتتكون كلمة Hagiografia من أصلين إغريقيين هما: Hagio ويدل على قديس، و Graphein بمعنى يكتب.

ويميز الأوربيون مصطلح Biography من مصطلح آخر هو Autobiography وهو يدل على السيرة التي يكتبها الكاتب عن نفسه، وقد استعمل العرب في العصر الحديث لفظ: "السيرة الذاتية" لتعني السيرة التي يضعها المرء لنفسه بقلمه هو، لا بقلم غيره، ومثالها ما ألفه الأستاذ طه حسين بعنوان: **الأيام**. وما صنعه ابن خلدون قديما عن نفسه تحت عنوان: **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا**[١١]. وأصل Auto من الإغريقية Autos ومعناها بنفسه، عن نفسه.

عندما تطلق كلمة "السيرة" هكذا معرّفة في العالم الإسلامي يفهم منها المسلمُ فورا سيرةَ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم[١٢]، لأنها أول سيرة تصل إلينا كاملة، ولأنها جزء من الحديث الشريف، وهذا الحديث هو المصدر الثاني للشريعة الإسلامية؛ لذا بلغت العناية به مبلغا كبيرا، من حيث الإسناد والمتن، وقد عني محمد بن إسحاق بكل ما يختص بالنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في

سيرته، وبالغ في عنايته حتى خرج عن حدّ المعقول، فحشاها بشعر كثير، بعضه موضوع، مما عرّضه لنقد الناقدين، وقد اختصر ابن هشام سيرة شيخه ابن إسحاق وهذبها(١٣).

لقيت السيرة النبوية كثيرا من العناية بالشرح والبسط، والاختصار والنقد، وقد نظمها شعرا بعض الشعراء المسلمين، وظلت كلمة سيرة مخصصة بحياة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى انتقلت إلى مجال أوسع، فأصبحت تدل على حيوات أناس آخرين، ولكن بالإضافة، فكتب ابن الداية **سيرة أحمد بن طولون**، وكتب البلوي أيضاً **سيرة أحمد بن طولون**(١٤). ومن قبل هذين المؤلفين وضع أبو محمد عبد الله بن عبد الحكم المتوفى سنة ٢١٤هـ **سيرة عمر بن عبدالعزيز**(١٥).

وإبان العصر العباسي ازدهرت المؤلفات في السير، وشملت الخلفاء والوزراء والقضاة والعلماء، وفقهاء الأمصار كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل والأوزاعي وداؤد الظاهري وابن حزم الأندلسي، وغيرهم.

وكما أن مصطلح السيرة نشأ في حضن الدين الإسلامي، فإن مصطلح المناقب والفضائل ظهر في كتب الحديث الشريف، فحينما نقرأ في **صحيح البخاري** نجد مثلا: باب فضائل أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم(١٦)، باب مناقب المهاجرين وفضلهم(١٧)، باب مناقب الأنصار(١٨). وكذلك إذا نظرنا في **صحيح مسلم** نجد فيه كتاب فضائل الصحابة، وهو يشمل نصف الجزء السابع تقريباً(١٩). وفي أكثر كتب الحديث ترد كلمة فضائل عنوانا على باب أو فصل. ومدار هذه الفضائل ذكر الأعمال الجليلة التي قام بها مثلا المهاجرون والأنصار، ورصد الخير الذي كان ينشره أبوبكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم، وقد رمى المحدثون إلى غرض آخر من وراء تسجيلهم لهذه الفضائل، هو أن يحملوا الناس على توقير هؤلاء السلف الصالح، خاصة أن بعض الحمقى في العصر العباسي أطلقوا ألسنتهم في بعض أكابر الصحابة بما لا يليق، فاحتوت هذه التسجيلات للمناقب والفضائل على إرشاد غير مباشر للمسلمين اللاحقين إلى ما ينبغي حيال الصدر الأول من الإسلام.

ومع اتساع حركة التأليف في الإسلام ظهرت كتب تحمل عنوان: فضائل أو مناقب، ولم تقتصر هذه الكتب على جيل الصحابة وحدهم، وإنما شملت التابعين ومن بعدهم، وكثرت المؤلفات في فضائل شيوخ الصوفية ومناقبهم وكراماتهم، وزادوا في هذه الناحية حتى عمت الخرافات والأساطير، وهي تشبه سير القديسين في العصور الوسطى الأوربية. ولو اقتصر الأمر على الحقائق وحدها لكان خيرا، ولكانت ثمرة التعليم أتم وأحسن.

وانتقل التأليف في المناقب والفضائل من عالم البشر إلى الأماكن والبلدان والأيام والليالي، فألف عمر بن محمد بن يوسف الكندي كتابا بعنوان: **فضائل مصر**[٢٠]. وكتب ابن ظهيرة: **الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة**[٢١]. وألف آخرون فضائل دمشق وبغداد والمدينة ومكة والأندلس وغير ذلك كثير. ولاشك أنها مؤلفات قيمة، لأنها تضم معلومات وحقائق مفيدة غير أنها تشمل أيضاً قصصا موضوعة، صنعها الخيال الخصب، وهي ترينا عقلية القوم الذين أنتجوها، والأفكار التي كانت تسيطرها على الناس في عهدهم.

وفي مقابل كتب المناقب والفضائل ظهرت كتب المثالب، وقد تولى إنشاءها الشعوبيون والزنادقة، وغايتها القدح والهجاء، فعلاّن الشعوبي الذي كان نسّاخاً للخليفة المأمون في دار الحكمة عمل كتابا في هتك العرب، سماه: **الميدان في المثالب**[٢٢]. وصنع أبو حيان التوحيدي كتاب: **مثالب الوزيرين**، فضح فيه ابن عباد وابن العميد، وكان السبب الداعي لكتابته أن أباحيان عندما رحل إليهما لم يكرماه كما كان يريد، وكما يليق بفكره وأدبه وعلمه، فحنق عليهما، وشوّه صورتهما[٢٣].

أما خبر وأخبار فقد شاع هذا المصطلح في علم الحديث، وفي دروس الفقه: هل يعمل بأخبار الآحاد أو لا يعمل؟ وفي مجال الأدب كثرت أخبار الشعراء والأدباء، وأصبح التاريخ مجموعة من الأخبار. وكان سوق الخبر يتكئ على الإسناد، مثلما هو الحال في الحديث النبوي.

وحملت كتب عربية جمة عنوان: أخبار. منها كتاب الطبري: **أخبار الرسل والملوك**، وهو مشهور بتاريخ الطبري. وكتاب ابن زولاق: **أخبار سيبويه المصري**[٢٤]. و **أخبار أبي حنيفة وأصحابه** لأبي عبدالله الصيمري، وقد مرَّ ذكره.

ـ ٣ ـ

والملاحظ أن فن السيرة في الحضارة الإسلامية قد ورد تحت هذه المصطلحات الخمسة: سيرة ـ ترجمة ـ فضائل ـ مناقب ـ أخبار. وكان تأثير الحديث الشريف فيها كبيرا، وأصبحت السيرة النبوية نموذجا مؤثرا في كتابة السير الأخرى على اختلاف في درجة التأثير طبقا لعقل كل كاتب ومزاجه، كما أثرت السير التي ألفها بلوتارك في فن السيرة عند الأوربيين[٢٥].

هل للسيرة علاقة بالتاريخ؟ إن المتأمل في فن السيرة يرى علاقة حميمة بينها وبين التاريخ، إلا أنه إذا دقق النظر أكثر تنبّه إلى الفرق بينهما، فالسيرة تعنى بالشخص، وتركز على حياته، ولا شك أن المرء لا يقوم وحده في هذا الكون، فلا بد له من صلة بالآخرين من بني آدم، أقارب أو أباعد، أصدقاء أو أعداء، لهذا فهو لا محالة مشترك معهم في الأحاديث، مهما كان انطوائيا؛ إذ إن الإنسان

حيوان اجتماعي كما يعرفه علماء الاجتماع، فكيف ينظر كاتب السيرة إلى هذه الأحداث؟ إنه ينظر إلى هذه الأحداث من حيث صلة المُتَرْجَمِ لَهُ بها، ومن حيث اشتراكه فيها، فيحدّد دوره، كما يبيّن أثرها فيه. أما التاريخ فيعنى بالأحداث، وينظر في العلل والنتائج، ولا يركز على الشخصيات إلا بمقدار إسهامها في صنع الحدث، وتحملها لنتائجه، فالأمور العامة هي غاية المؤرخ، ولذلك لا تعنيه تلك التفاصيل في حياة الأشخاص، بينما هذه التفاصيل تقع في موقع الأهمية في عين مؤلف السيرة؛ إذ هي التي تجعلنا ونحن نقرأ تلك السيرة منشرحين منجذبين إلى هذا البطل، أو ضائقين به، نافرين منه، أو متعاطفين معه في بعض الأحيان. إن هذه الجزئيات هي التي تحدد صورة البطل في السيرة، وتجعله مختلفا عن بطل آخر في سيرة أخرى.

إن التاريخ يتناول حياة الأمة بينما تتناول السيرة حياة الفرد، وتعنى بتصويره من الداخل والخارج. بيد أن توماس كارلايل يرى أن التاريخ نفسه هو تاريخ أفراد عظماء، إنهم هم الذين صنعوه، وهم الذين نشروا الأفكار التي وجهت الأمة؛ لذلك فإن السيرة بالغة الأهمية في فهم المجتمع؛ إنها منهج جيد لإدراك المجتمع إدراكا صحيحا، ومعرفة نظمه بدقة(٢٦)، أي أن التاريخ في النهاية هو مجموعة سير للأبطال. ويعتقد كاتب السيرة الفرنسي أندريه موروا أن "السيرة قصةُ تطوُّرِ نفسٍ بشريةٍ، والتاريخ بالنسبة إلى هذه النفس مثل الخلفية التي يضع رسام البورتريه نموذجه أمامها(٢٧). فالصورة هي الهدف الذي يقصده الرسام، والخلفية إطار يساعد على إبراز الصورة، كذلك التاريخ يستحضر منه كاتب السيرة ما يخدم الشخصية التي يتحدث عنها؛ ولذلك لا ينبغي له أن يكثر من الخوض في الأحداث التاريخية، كما يجب عليه أن يتجنب كل ما لا يخدم هدفه؛ لأنه إن وقع فيه كان حشوا مملا، يضر السيرة، ويذهب جمالها، ويبهت الشخصية المصورة أو المقصود تصويرها في السيرة.

ما الفرق بين السيرة والقصة؟

لقد عرفت السيرة بأنها قصة إنسان حقيقية والرواية قصة خيالية، لكن أليس في السيرة خيال؟ وألا يمكن أن تبنى القصة أو الرواية على شخصية حقيقية؟ لا ريب أن في السيرة خيالا، وأن في القصة حقائق، إلا أن السيرة تبنى على الحقائق أصلا، بينما تقوم القصة على وقائع متخيَّلة غالبا، وإلا لما كانت قصة بحال(٢٨). ويختص الخيال في السيرة بتنظيم الوثائق وترتيبها في كل متكامل بحيث لا يكون بينها تناقض، ومن هنا كانت سيطرة العقل الواعي على أجزاء السيرة كاملة، على حين أن الخيال في القصة يبتدع ما يشاء من شخصيات وحوار وأماكن وصراعات بحيث يكون في النهاية معادلا للحياة، وليس هو هي، وقد يطلق الروائي لِلاَّوَعْيِ فرصة يعمل فيها خلال الرواية. من

هنا رأى بعض الباحثين أن كتابة السيرة الحقيقية عمل بالغ الصعوبة[٢٩] إن كاتب السيرة يلزمه أن يبحث في كل الوثائق والخطابات والمذكرات والكتب التي تركها الشخص المكتوب عنه، كما أن عليه أن يسمع شهادات معاصريه إن كان هذا الشخص معاصرا، وأن يعرف علاقاته بالآخرين، وألا يستهين بأي شيء يتصل بذلك الشخص. على أن الأهم هو القدرة النقدية التي تميّز الوثائق الصحيحة من الزائفة والمزوّرة، ثم أن يعرف الأهم والمهم والأقل أهمية. وكل هذا يتطلّب جهدا كبيرا، لا يقدر عليه إلا الكاتب المتميّز الصبور. وكل هذا الجهد الروائي في غنى عنه، إنه لا يحتاج أن يفتش في السجلات، ولا يلهث لاستماع الشهادات، ولا يدقق في أية وثيقة. حتى كُتّاب القصة التاريخية لا يجهدون أنفسهم كما يجهدها كُتّاب السيرة المتفوّقون.

هل تختلف السير الحديثة عن السير القديمة؟ الحق أن أوجه الاختلاف كثيرة، فالكاتب القديم كان يرسم من الشخص الذي يكتب عنه صورة مثالية في كل شيء، حتى إنه يبعده عن كل خطأ بشري، مع أن كل ابن آدم خطاء، ومع النهضة الحديثة ملّ الناس هذه النماذج النمطية، فصدفوا عنها، ولجأ النقّاد إلى الحملة على هذه الطريقة في كتابة السير، بل إنهم سخروا منها أشد السخرية، فالناقدة فرجينيا وولف تقول عن كتّاب السيرة في العصر الفيكتوري: "كان كاتب السيرة الفيكتوري مسكونا بفكرة الخير: نبلاء، مستقيمون، عفيفون، صارمون، هكذا كان يقدم لنا الأعلام الفيكتوريين، حتى ليكاد الشخص يرتفع فوق الحجم الاعتيادي بقبعة عالية ومعطف طويل، فتصبح طريقة التقديم متعثرة متعبة"[٣٠]. أنها متعثرة متعبة لأنها نماذج محفوظة مكرورة خالية من الصدق في كثير من جوانبها، ولا يؤثر في القارئ مثل الكتابة الصادقة التي تظهر الإنسان على حقيقته.

من جانب آخر كان كاتب السيرة القديم معنيّاً في الأكثر بما هو عام، ولكن الكاتب الحديث مهتم بما هو خاص بالشخص غاية الخصوصية؛ لأن هذا هو المميز الحقيقي له من غيره من الناس. وقد كان المؤلف السالف يضع سيرته كما يشاء أو بناء على التقاليد المتعارف عليها في عصره، بيد أن عصرنا قد وضع قواعد لكتابة السيرة الجيدة يمكن إجمالها كما يأتي:

١- التسلسل الزمني.

٢- تاثير الأحداث والناس في المترجم له.

٣- اختيار المادة المفيدة وترك ماعداها.

٤- التعبير الجميل المؤثر.

٥- الصدق في عرض الشخصية بخيرها وشرها.

إن قيمة السيرة تكمن في إطلاعنا على حقيقة المكتوب عنه، أكان سعيدا؟ وكيف حقق السعادة؟ أو الضد؛ هل كان تعيسا؟ ولماذا كان هكذا؟ (٣١)، وهل كان يتظاهر بالسعادة وهو شقي؟ وما الداعي إلى ذلك؟ كل هذا يثير الفكر، ويصل بين القارئ وبطل السيرة، ويعلمه من حيث لا يدري، ويمتعه برؤية شخص من لحم ودم، له أهواؤه، ولديه مثالياته وطموحاته. إن السيرة إعادة خلق لحياة حقيقية تبدو عظمتها في صدقها، وتفرد بطلها الذي ينجح ويفشل، ويكافح ولا ييأس، ويضيق ولا يقنط . هذه الطريقة تجذب قلب المتلقي، وتثير عقله؛ لأنها تضع تجارب حية أمام ناظريه.

وتتفق السير الحديثة مع السير القديمة في اختيار الشخص الذي يكتب عنه فيها، فقد كان المؤلف القديم يختار شخصا متميزا في العلم أو الدين أو السياسة أو الحرب أو غير ذلك، فيسجل حياته كما يرى، ويدفعه إلى ذلك إعجابه بهذا الرجل، وكذلك يصنع كاتب السيرة المعاصرة، لأن الإنسان بطبعه مشدود إلى البطولة في كل شيء، وبخاصة وهو في مرحلة الشباب. غير أن الأمر قد اختلف الآن بعض الاختلاف، فقد رأى بعض الكتاب أن كل إنسان يمكن أن يكون موضوعا للسيرة، مهما كان تافها في نظر الناس أو المجتمع، والعبرة في جودة السيرة مردها إلى قدرة الكاتب، وحسن عرضه لهذه الحياة. لكن يبدو لي أن هذا لا يمكن أن يتحقق إلا إذا عرف الكاتب هذا الشخص عن قرب، واختلط به، ورأى مواضع تستحق التسجيل، وتوافه وحماقات يشترك فيها هذا الشخص مع غيره من البشر، فيصورها الكاتب المبدع بقلمه لينفر الناس منها، كما يصنع كاتب الملهاة بموضوعه وشخوصه. على كل حال أصبح الأمر كما هو الحال في الشعر، كان قديما له موضوعات خاصة، وأصبح الآن يتناول كل شيء، المهم هو قدرة الشاعر، كذلك كل امرئ كائنا من كان يمكن أن يكون موضوعا للسيرة، والأمر متعلق بقدرة الكاتب الفنّان.

إذا سأل سائل: ما الفرق بين السيرة والسيرة الذاتية؟ يأتي جواب كثير من الناس بأن السيرة الذاتية يكتبها المرء بنفسه عن نفسه، والسيرة يكتبها الكاتب عن غيره. هذا الجواب حق، ولكنه ليس كل الفرق، إن هناك نواحي أخرى تفرق بينهما، منها أن السيرة الذاتية تنقص دائما الفصل الأخير، وهو ساعة توديع الدنيا ومن فيها، وهو فصل ختامي مهم، يقابله فصل آخر، هو أول فصل، حينما يأتي إلى الدنيا، هل يقدر الكاتب أن يتذكر كيف ولد؟ وكيف كان يحبو؟ وماذا كان يأكل؟ وما الذي أفرحه؟ وما الذي أحزنه؟ وماذا كان يلبس؟ وكيف مرض؟ وكيف شفي؟ إنه فصل مهم ربما يستغرق خمس سنوات من عمر الإنسان، لا يدري فيه شيئا، وإن كان درى فالأيام تنسيه. كان د. جونسون يرى أن "حياة الرجل حين يكتبها بقلمه هي أحسن ما يكتب عنه"(٣٢). قد يكون هذا صحيحا في بعض الأحيان، ولكن في كثير من الأحيان يغطي الكاتب جوانب كثيرة من حياته،

لأنه يشعر بالخجل إن كتب عنها، وإن لم يشعر بالخجل، وكانت له جرأة على نفسه، فإنه يخشى على أولئك الذين كانت له بهم صلة، لذلك يلجأ للتمويه، ويركن إلى حذف أجزاء مهمة تظهر لنا شخصيته جلية إن ذكرها. وهناك النسيان الذي يعتري ذاكرة ابن آدم، فيضيع كثير من الحوادث المهمة، ومن ناحية أخرى فإن بعض الناس ينسجون حول أنفسهم دراما، كلها من صنع خيالاتهم، جذبا لعطف القارئ، وما هي من الحقيقة في شيء، وعندئذ تتعرض السيرة الذاتية للضعف بسبب التزييف(٣٣). والسيرة تخلو من هذا القصور، ولكنها تتعرض لأخطار أخرى، أهمها أن الكاتب يعرض الشخص، كما بدا له، ومهما حاول رسم صورة حقيقية لبطل سيرته، فلا بد أن تتلوّن هذه الصورة إلى واحد باختلاف المؤلفين. إن السير تثير من الشك أكثر مما تمنح من اليقين، إن القارئ المتدبر حينما يفرغ من قراءة السيرة يسأل نفسه: أحقا كان البطل هكذا؟ وعندئذ يجد في قلبه جوابا فحواه: لست أدري بالضبط، من المحتمل أنه كان هكذا، ولا ريب أن جزءا من هذا صحيح، قد يكون كالظل لصاحبه. على أية حال فإن السيرة والسيرة الذاتية يكمن جمالهما في مثل هذه الإثارة، كما يظهر الرضا النفسي في معرفة التجارب الحية، واتساع الأفق يأتي من استطلاع أخبار الآخرين في هذه المؤلفات الأدبية. إن فن السيرة أكثر إمتاعا للقارئ الناضج من القصص الخيالية، ربما لأنه يعرف أن هذا الإنسان كان حيا يصارع الحياة مثله حقا، فسيرته جديرة بالقراءة والتأمل؛ لأنها تكشف أشياء واقعية عديدة، وإن كان الشك كثيرا. أما القصص الخيالية فشخوصها من بنات الخيال، ولم يكونوا في يوم من الأيام يدبُّون على هذه الأرض؛ ولذلك يقل التعاطف معها، والاندماج فيها، إلا ما كان من القرّاء الشبّان الذين هم في ريعان الشباب؛ إذْ الغالب عليهم التحليق في الخيال الرومانسي.

— ٤ —

لقد ازدهر فن السيرة عند المسلمين منذ ألفت سيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى الآن، ولم يقتصر التأليف على العظماء المبرزين في الدين والعلم والسياسة والحرب فقط، وإنما شملت جميع الطبقات الاجتماعية، حتى الحمقى والمغفلين، ولكن للأسف مازال أكثر هذه الكتب مخطوطا مطمورا في بطون المكتبات العامة والخاصة ينتظر من يتجرد له وينشره؛ ولذلك لا يشعر كثير من الناس بما أنتجه المسلمون في هذا الفن؛ ومثال هذا ما كتب تحت "أدب السيرة" في دائرة المعارف البريطانية الجديدة؛ إذ قال الكاتب: "في الشرق، خلال ميراثه الثقافي الطويل، وفي الإسلام أيضاً، لم يظهر تطور في أدب السيرة ولا نالت الأهمية، أهمية كتابات الحياة الغربية"(٣٤). قد يكون هذا الكلام صحيحا في الشرق، ولكنه لا يصح في الإسلام؛ لأن التراث الإسلامي زاخر بفن السيرة من كل لون. إن بعض الشخصيات كتب عنها أكثر من سيرة، فما ألف عن حياة النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ في

غاية الكثرة، وقد شارك الشعر النثر في هذه الناحية، وأسهم الأدب الشعبي في عرض حياته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ورغم أن بعض هذه السير يمتح من منبع واحد، فإن كل سيرة منها تحمل كثيرا من خصائص كاتبها. وأبو حنيفة النعمان كتبت عن حياته ثلاث وعشرون سيرة مفردة، أما التعريف به في كتب التراجم والطبقات فكثير جدا.

سيرة أبي حنيفة:

من العسير درس كل هذه السير في هذا البحث المحدود؛ ولذلك سأقتصر على بعض هذه السير التي ألفت في قرون مختلفة، وقد سبقت الإشارة إليها؛ فأبيّن خصائصها ومناهجها وقيمتها ومدى إبرازها لشخصية أبي حنيفة رضي الله عنه.

كان الإعجاب والغيرة والدفاع عن المذهب الحنفي أهم الدوافع التي دفعت المؤلفين أو معظمهم إلى التأليف عن أبي حنيفة، فبعض أهل العلم حملته عاطفة الإعجاب بشخصية الإمام الأعظم من جميع النواحي كالعلم والورع والزهد والثراء والسخاء والعبادة، فعبّر عن إعجابه بمؤلف كامل مستقل، قد يكون صغيرا أو متوسطا أو كبيرا. وفريق آخر دفعته المنافسة في التأليف، وحبُّ الذكر الحسن، فكتب عن الإمام؛ ليأخذ مكانة بين أصحاب السير، ولدى المذهب الحنفي. وآخرون كتبوا عن الإمام دفاعا عنه ضد هجمات المناوئين من أصحاب المذاهب الأخرى، وخاصة المذهب الشافعي، وقد جاءت هذه السير متأخرة إلى حدٍّ ما، وهي تصور التعصب الأعمى الذي دب بين المذاهب الإسلامية، رغم أن الأئمة الكبار كانوا مَثَلاً أعلى في التسامح.

والناظر في السير التي ألفت عن أبي حنيفة يلاحظ أنها وضعت على نمط سيرة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذه كانت جزءا من البحث الشريف، أي أن كاتب سيرة أبي حنيفة عني بالإسناد عناية بالغة. يبدو ذلك مثلا في السيرة التي ألفها الخطيب البغدادي عن أبي حنيفة، وقد استغرقت مئة صفحة في **تاريخ بغداد** الجزء الثالث عشر. وبالإضافة إلى الاقتداء بنمط الكتابة في السيرة النبوية، فإن الخطيب البغدادي كان محدِّثا، وصحة الخبر عند المحدِّثين لا تثبت إلا بصحة الإسناد وصحة المتن، بل إن صحة الإسناد مقدَّمة لديهم، أو لدى أكثرهم. لهذا يشعر القارئ المعاصر بضيق أو ببعض الضيق من طول العنعنة وقصر الخبر، فقد يكون الخبر جملة واحدة، ويستغرق الإسناد أربعة أسطر، كما في **مناقب الإمام الأعظم** للكردري، ولكن هذا القارئ لو صبَّر نفسه على قراءة هذه السير لوجد فيها خيرا كثيرا. والمعلوم أن لكل عصر منهجا غالبا في التأليف، وكذلك لكل بيئة. وقد تخلص بعض الكاتبين في سيرة أبي حنيفة من طول الإسناد، فاختصروه، وأراحوا القارئ العجلان من هذه السلسلة، كما صنع الذهبي في كتابه: **مناقب أبي حنيفة وصاحبيه: أبي يوسف ومحمد.**

وكذلك فإن المتأمل في هذه السير يرى أنها مجموعة من الأخبار المنسّقة وقد يكون تنسيقها جيّدا، وقد يكون دون ذلك، وتساق هذه الأخبار دون تعليق في أغلب الأحيان، وقد يعلّق الكاتب في القليل. وكان المؤلف يريد أن يقف موقفا موضوعيا، فيضع الوثائق المختلفة أمام القارئ؛ ليتأمل بنفسه، ويحكم باستقلال. من أجل هذا يري المتلقي الخبر، ثم يجد بجواره خبرا آخر مضادا له تمام المضادة، فيحار ماذا يصدق؟ هذا أو ذاك؟

غير أن هذه الأخبار المفرّقة يربطها رابط مركزي، وهو شخصية أبي حنيفة، كما أن مؤلفي هذه السير قد قسموها إلى أبواب أو فصول، كل فصل يحتوي على طائفة من هذه الأخبار، فمثلا الفصل الأول يشتمل على "نسب أبي حنيفة"[٣٥] وفيه ترد كل المقولات التي قيلت عن أصل الإمام ومن أين جاء أسلافه. والفصل الثاني عن "مولد أبي حنيفة"[٣٦] ويضع فيه الكاتب كل التواريخ المتفقة والمتعارضة التي سيقت عن مولد الشيخ. وهكذا يجمع المؤلف كل الأخبار المتصلة بموضوع واحد في مكان واحد. وأحيانا يحدُث تكرار الخبر في أكثر من فصل، إلا أن القارئ الصبور يخرج في ختام القراءة للسيرة بصورة كاملة أو قريبة من الكمال عن شخصية أبي حنيفة كما رآها الكاتب.

والظاهر للعيان أن كل السير التي ألفت حول أبي حنيفة على امتداد التاريخ ذرية بعضها من بعض، تتقارب المادة العلمية فيها أبلغ التقارب، ويتشابه التقسيم الداخلي في السير، بجانب العناية بالإسناد إسهابا أو اقتضابا، إلا أن بين هذه المؤلفات فروقا تظهر عند التأمل، كما تظهر الفروق بين جيل الآباء والأبناء رغم التشابه الناتج عن قوانين الوراثة. ولم يشذ عن هذه القاعدة إلا السير التي كتبت عن أبي حنيفة في العصر الحديث، كمثل كتاب **أبي حنيفة** للشيخ محمد أبو زهرة، و **أبي حنيفة بطل الحرية والتسامح**[٣٧] الذي ألفه عبدالحليم الجندي، وهما من السير الحديثة، وقد تأثر المعاصرون من المؤلفين العرب بنمط التأليف عند الأوربيين في كافة المجالات.

بناء سيرة أبي حنيفة:

على طريقة النقد البنيوي يمكن أن ندرس ما كتب عن أبي حنيفة، وأهم ركيزة في هذا المنهج هي اكتشاف نسق هذه الأعمال، والتعبير عن هذا النظام بوضوح؛ ولذلك يلجأ النقاد البنيويون إلى تفكيك العمل الأدبي، ثم إعادة بناء نسقه مرة أخرى، والغاية من هذا الإجراء غاية عملية هي الحصول على المعرفة العقلية، أما الغاية الجمالية فلا يمكن أن تتحقق إلا بإدراك العمل كما هو، أي كما أبدعه مبدعه؛ إذ لا ريب أن أي تدخل في العمل الإبداعي بالتفكيك يذهب كثيرا من جماله، فالوردة ليست جميلة بعد تقطيعها، وإنما هي جميلة بكمالها وفي شجرتها كما خلقها الله. غير أننا نلجأ إلى تشريح الوردة لنفهم أجزاءها، ونعرف نظام تركيبها، فالغاية هنا معرفية صرفة.

عند تقطيع هذه السير التي يعتمد عليها هذا البحث ماذا نرى؟ أو ماذا يوجد فيها؟ إننا نرى كمًّا كبيراً من المعلومات التي تحتمل الصواب والخطأ، ونجد أنواعا من الجدل والصراع يلين ويشتد، ونلفي نوادر مضحكة، وموازنات بين أبي حنيفة وغيره من الفقهاء والشيوخ، يتبع ذلك مدح وقدح، ثم تختم السير بخاتمة المطاف: الموت، ويتصل بالوفاة رؤى وبشارات مختلفة. كل هذه الأشياء قطع في السيرة الحنفية تكوّن نسيجها، وتضفي عليها جمالا جذابا، ومشوقا للقراءة، ودافعا للاستمرار فيها، ومانعا من الملل والقلق.

١- المعلومات:

ترد المعلومات في هذه السير بطريقة مباشرة، فمثلا يقول الصيمري: "أخبرنا عمر بن إبراهيم المقري، وعبدالله بن محمد الشاهد، قالا: حدثنا مكرم بن أحمد، قال: ثنا عبدالوهاب، قال: حدثني أحمد بن القاسم، قال: ثنا البرتي القاضي، قال: سمعت أبا نعيم يقول: ولد أبو حنيفة سنة ثمانين"(٣٨).

إن في هذا الخبر معلومة عن ميلاد أبي حنيفة، وهي أنه قد ولد سنة ثمانين من الهجرة، يقابل هذه المعلومة، وهي فاتحة حياة أبي حنيفة، معلومة أخرى تمثل خاتمة حياة الإمام، تلك المعلومة خاصة بوفاة الرجل، يروي الصيمري في ذلك قولا: "فقدم بغداد، فمات فيها وهو ابن سبعين"(٣٩). وبين هاتين المعلومتين تأتي معلومات كثيرة تتصل بدراسة أبي حنيفة، صحيح أنها ليست مفصلة، وأنها وردت مجملة وناقصة، ولكن فيها قدر كبير من الفائدة، منها عنايته بدراسة علم الكلام في شبابه، ثم سأمه من هذا العلم، واتجاهه لعلم الفقه، وهنا تساق المعلومة في صيغة حكاية هي: "قال أبو حنيفة: كنت أنظر في الكلام حتى بلغت فيه مبلغا يشار إليّ فيه بالأصابع، وكنا نجلس بالقرب من حلقة حماد بن أبي سليمان، فجاءتني امرأة يوما فقالت: رجل له امرأة أمة، أراد أن يطلّقها للسنّة، كم يطلّقها؟ فأمرتها أن تسأل حمادا، ثم ترجع فتخبرني، فسألت حمادا، فقال: يطلقها وهي طاهر من الحيض والجماع تطليقة، ثم يتركها حتى تحيض حيضتين، فإذا اغتسلت فقد حلت للأزواج. فرجعت فأخبرتني، فقلت: لا حاجة لي في الكلام، وأخذت نعلي، فجلست إلى حماد، فكنت أسمع مسائله، فأحفظ قوله"(٤٠). في هذه الحكاية ثلاثة مقاطع تحتوي معلومات عديدة: الأول أن أباحنيفة كان يدرس علم الكلام، وأنه كان منقطعا إليه تماما، ولهذا بلغ فيه درجة عالية من الإتقان، وأن حلقة المتكلمين كانت قريبا من حلقة الفقيه حماد بن أبي سليمان في المسجد. الثاني أن المرأة سألت أبا حنيفة عن الطلاق السنّي، كيف هو؟ فلم يعرف، فأمر أن تسأل حماد بن أبي سليمان، فأجابها، ثم ذكرت الجواب لأبي حنيفة، وأكبر الظن أن أبا حنيفة قد خجل؛ إذْ لم

يعرف الجواب عن هذه المسألة المهمة. الثالث: أن أبا حنيفة قرّر أن يترك علم الكلام، هذا العلم النظري، وأن يدرس علم الفقه، وهو علم عملي متصل بالحياة والأحياء، فانصرف إلى حلقة حماد، وأخذ يسمع ويحفظ، حتى تفقه، وصار أعظم من كثير من الفقهاء. إن هذه معلومات مفيدة سيقت مساق الحكاية، فظهر منها نوع الدرس الذي عكف عليه أبو حنيفة، والعلة الدافعة إلى ذلك، ثم النتيجة التي توصل إليها، وهي نتيجة مشرِّفة.

وتعني كتب السيرة في هذا المجال فتمدّنا بمعلومات وبيانات عن شيوخه وأصحابه وتلاميذه. وتنظم البيانات أحيانا في صورة صراع بين أصحاب المذاهب، كمثل هذا: "عن الإمام أبي عبد الله بن الإمام أبي حفص الكبير أنه وقع التنازع بين اصحاب الشافعي وأبي حنيفة في التفضيل، فقال أبو حفص: عدوا مشايخ الشافعي، فبلغ ثمانين شيخا. وعدوا مشائخ الإمام، فبلغ أربعة آلاف شيخ. فقال: هذا من أدنى فضائله"(٤١).

وتمدنا السير بمعلومات وصفية عن أبي حنيفة، تنقسم قسمين:

الأول أوصاف جسمية، والثاني أوصاف نفسية، وهذه الأوصاف بشقيها تبرز أمام أعيننا هيئة أبي حنيفة وأخلاقه وطباعه. أما وصف الجسم فيظهر في مثل هذا النص: "كان أبو حنيفة جميلا، حسن الوجه، حسن اللحية، حسن الثوب"(٤٢). هذا وصف عام، وهناك نص آخر أكثر دقة، هو: "كان أبو حنيفة ربعة من الرجال، ليس بالقصير ولا بالطويل، وكان أحسن الناس منطقا، وأحلاهم نغمة، وأبينهم عما يريد"(٤٣). هذا النص يعلمنا أن أباحنيفة كان متوسط الطول، بليغا حسن الإلقاء والتعبير عما يريد. غير أن هناك نصا آخر يناقض هذا النص، ويثبت أن أباحنيفة "كان طويلا، تعلوه سمرة"(٤٤). وإذا أمكن الجمع بين النصين فإنه كان ربعة مائلا إلى الطول، بهذا يحل التناقض القائم. بيد أن الوصف "تعلوه سمرة" يناقض تمام المناقضة هذا النص الذي يقول: "كان نحيفا شديد البياض أزرق ربعة"(٤٥)، لا بد أن أحد النصين فيه خطأ، والذي تستريح إليه النفس أنه كان أبيض، لأن أصله من كابل، وهي بلاد باردة، وأهل تلك البلاد يغلب عليهم البياض.

مثل هذه المعلومات المتشابكة كثيرة في سيرة أبي حنيفة، وظاهر من بعضها التناقض، ولكن إذا بذل القارئ جهدا في البحث عن الحقيقة فلا بد أنه وَاصِلٌ إليها. فالمعلومة التي تتصل بالبلاد الأصلية التي جاء منها جد أبي حنيفة الأعلى ترد في عدة جمل، منها أن جده الأعلى من أهل كابل ببلاد فارس، ومنها أنه من الأنبار، ومنها أنه من النبط، هكذا، يحار القارئ ولكن المشكلة تحل إذا دققنا النظر في المسألة؛ إذن كيف يكون الحل؟ يبدو لي أن جده الأعلى "زوطي" كان من بلاد فارس، ثم جيء به إلى بلاد العراق، واشتراه بنو تيم الله، ثم أعتقوه، فولاؤه لهم، وقد يكون ابنه ثابت سكن

الأنبار، فنسب إليها، ثم انتقل إلى الكوفة، وأقام هو وأبناؤه، ومنهم أبو حنيفة، ولذلك ينسب إلى الكوفة.

أما الأوصاف النفسية فتكثر في السيرة حتى تقع فيها مبالغات عديدة. وكان كثيرون يسألون تلاميذ أبي حنيفة عن أخلاقه؛ لأنهم أدرى الناس به، منهم أبو يوسف الذي سأله الرشيد أن يصف له أخلاق أبي حنيفة، فقال: "كان علمي بأبي حنيفة أنه شديد الذب عن محارم الله تعالى أن تؤتى، شديد الورع أن ينطق في دين الله بما لا يعلم، يحب أن يطاع الله، ولا يعصى، يجانب أهل الدنيا في زمانهم، لا ينافس عزها، طويل الصمت دائم الفكر على علم واسع. لم يكن مهذارا ولا ثرثارا. إن سئل عن مسألة كان عنده فيها علم نطق به، وأجاب فيها بما سمع، وإن كان غير ذلك قاس على الحق، واتبعه، صائنا لنفسه ودينه، بذولا للعلم والمال، مستغنيا بنفسه عن جميع الناس، لا يميل إلى طمع، بعيد الغيبة، لا يذكر أحدا إلا بخير، فقال له الرشيد: هذه أخلاق الصالحين"(٤٦).

هذه شهادة أبي يوسف تنطق بمحاسن شيخه أبي حنيفة أنه عالم ورع، يدعو إلى الله على بصيرة، حافظ لحدود الله، ممسك لسانه عما لا يحل، لا يجيب إلا بعلم، كريم يجود بعلمه وماله، غير حريص على شيء من حطام الدنيا، قد أغناه الله عن الناس. تلك كلها فضائل نفسية فطر عليها الرجل، ومكّنها وقوّاها نظره في كتاب الله، وتأمُّله في حديث رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ واقتداؤه به في العلم والعمل والتعفّف وسلامة الجانب، وترك ما لا يعنيه.

ومن صفات أبي حنيفة وأخلاقه النبيلة الحلم، وقد ورد في سيرته أن رجلا شتمه، وبالغ في السبّ حتى قال له: "يا كافر، يا زنديق"، فما زاد أبو حنيفة على أن قال له: "غفر الله لك، هو يعلم منّي خلاف ما تقول"(٤٧).

لقد أفاضت كتب السيرة الخاصة بأبي حنيفة في صفة من صفاته النفسية، وهي الكرم، ولا سيما إفضاله على تلاميذه، وإعطاؤه لأهل الحديث من أمثال سفيان بن عيينة(٤٨). ورعايته لأبي يوسف مشهورة. وكذلك موقفه مع معلم ولده حماد موقف كريم؛ إذ إن أبا حنيفة منح معلم ولده خمسمائة درهم بعد أن حفظ الفاتحة(٤٩).

ومن الأوصاف النفسية ميل أبي حنيفة للغزلة، وقد كان بعض أهل عصره يؤخذونه على ذلك، قال أبو بكر بن عيّاش: "لقي أبو حنيفة من الناس عتبا؛ لقلة مخالطته الناس، فكانوا يرونه من زهوٍ فيه، وإنما كان ذلك منه غريزة فيه"(٥٠). أحقا كان أبو حنيفة معتزلا عن الناس، لا يزور ولا يزار؟ لا أعتقد ذلك؛ إنه كان يقضي يومه في البحث والتدريس، يأتيه المتعلّمون من كل فج، فيعلّمهم، ويحاورهم، ويقعد للإفتاء وحل المعضلات للمستفتين، ويساعد الفقراء والمحتاجين فكيف

يوصف بالعزلة؟ إنه يناظر العلماء للوصول إلى الحق، فلماذا يعتب عليه الناس؟ لا شك عندي أن هؤلاء العاتبين عليه كانوا يريدون منه أن يقعد معهم، فيخوض فيما يخوضون فيه من لغو، وهو رجل تعاف نفسه مثل ذلك، ولا يطاوعه طبعه على المشاركة فيما لا يفيد. إن العزلة الحقيقية هي أن يتجنب المرء كل الناس، فلا يفيد ولا يستفيد، وأبو حنيفة لم يكن من هذا النمط.

لقد جاء خبر يدل على أن أبا حنيفة كان يشارك الناس فيما هو خير، هذا نصه: "كان النعمان بن ثابت الخزاز حسن التفقد لأمور أصحابه؛ يسأل عن أحوالهم سرا، فمن عرف به حاجة واساه، ومن مرض منهم أو قريبا له عاده، ومن مات منهم أو قريبا له شيّع جنازتهم، أو نابتْه نائبة أو لأحد من أصدقائه سعى في حوائجهم، وكان كريم الطبع، حسن المعاشرة"(٥١). هذا هو المعقول من شأن رجل عالم مفكر، يسهم في الخيرات، ويحرص على عمره، فيحب أن يقضيه في كل ما يرضي ربه.

ومن الخصائص النفسية التي اتسم بها هذا العالم الجليل فضيلة الصبر، يبدو هذا أكثر ما يبدو مع تلاميذه، فهو يعلمهم بهدوء ويناقشهم في المسائل العديدة حتى يصل معهم إلى حل مناسب، وهو يترك لهم الحرية في الرد عليه، ويذكرنا هذا المسلك الحسن في التعليم بمسلك سقراط الحكيم اليوناني؛ إذ كان يعرض القضايا في أسلوب محاورات، حتى يصل الجميع المتحاورون إلى حل ملائم، وفي هذا تشغيل للعقول.

ومن المميّزات النفسية التي امتاز بها أبو حنيفة انشغاله بالعبادة، صلاة واستغفارا ودعاء، وكان يحب التهجد كثيرا. وهذا يصح من رجل عالم عاقل، قد قسم وقته بين الدرس والتدريس والفتيا وصلة الأصحاب والأهل، والنسك والعبادة. وقد تحدث الناس عن عبادة أبي حنيفة، وعن قيامه بالليل، وظل هذا الحديث يزداد حتى أوغل في مبالغة التي لا يقبلها عقل صحيح، من تلك المبالغات هذا النص: "صلى أبو حنيفة فيما حفظ عليه صلاة الفجر بوضوء العشاء أربعين سنة، فكان عامة الليل يقرأ جميع القرآن في ركعة، وكان يسمع بكاؤه بالليل حتى يرحمه جيرانه، وحفظ عليه أنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة"(٥٢). ألم يحدث أن ذهب أبو حنيفة إلى الخلاء بعد صلاة العشاء خلال أربعين سنة؟ وإذا جاز هذا في ليالي الصيف القصيرة، أي يقدر أن يصلي الفجر فيها بوضوء العشاء، أفيجوز في ليالي الشتاء الطويلة أن يحتفظ بوضوئه طول هذه السنين؟ إنها مبالغات مغرقة في الخيال، إلا إذا فهمنا الأعداد في هذا النص على أنها كناية عن الكثرة فقط. كذلك الشأن في كل ما ورد من نصوص بشأن قراءة القرآن كله في ركعة على مدى أربعين عاما، والذي يقبله العقل أنه كان يكثر قراءة القرآن، وأنه كان يتدبره، والتدبر يستلزم وقتا وأناة، أما القراءة السريعة فلا تساعد

على التدبر والتأمل. ولماذا كان يبكي بصوت عال؟ هل كان يزعق ويصرخ حتى يزعج الجيران؟ لا أظن؛ فإن أبا حنيفة كان عاقلا، وكان رزينا، وكان يعرف أن العبادة في السر أفضل من العلن إلا الفرض فهو لازم الأداء سرا وعلنا، مفردا وجماعة، والجماعة أحسن. أما القول: "حفظ عليه أنه ختم القرآن في الموضع الذي توفي فيه سبعة آلاف مرة" فمن الذي كان يحسب هذا المرات؟ لا ندري؛ إن الفعل "حفظ" مسند لمجهول، فالصيغة هنا صيغة تمريض كما يقول المحدثون. وأشد من هذه المبالغة السابقة هذه الخرافة الآتية: "الإمام لما حج حجة الوداع شاطر ماله مع السدانة، واستدخله الكعبة، فقام على رجله وقرأ نصف السبع المثاني، ثم قام على رجله الأخرى وختم النصف الثاني، وقال: يا رب ما عرفتك حق المعرفة، وما عبدتك حق العبادة، فذهب لي نقصان الخدمة بكمال المعرفة، فنودي من زاوية البيت: عرفت فأحسنت المعرفة، وخدمت فأخلصت الخدمة، غفرنا لك ولمن كان على مذهبك إلى قيام الساعة"(٥٣). إن هذه حكاية موضوعة وضعها بعض المتعصبين للمذهب الحنفي، يظهر وضعها من آخرها، وهو أنه غفر لجميع الأحناف حتى يوم القيامة، من مات منهم، ومن عاش، ومن ولد، ومن سيولد حتى ينفك نظام العالم، وهذا ما لا يصدقه عقل ولا نقل. ولماذا يصلي أبو حنيفة هكذا على رجل واحدة، ثم يصلي على رجله الأخرى، ويرفع الأولى؟ ما هذا؟

إن المعهود في تاريخ الشعوب أن العوام يبالغون في رسم صورة أبطالهم، الموتى والأحياء، وكلما مرت الأيام يزيدون في المبالغات، حتى إنهم ليجعلون أبطالهم يطيرون في الهواء، ويمشون على الماء، ويكون أحدهم هنا، وفي غمضة عين يكون في أقصى الأرض، وعندما يغيب النقد العقلي للحكايات والأقوال تنتج مصانع الأساطير كثيرا من الخرافات. كان في أوربا في العصور الوسطى كمّ مهول من هذه الأباطيل حتى جاء عصر التنوير، وبدأ الناس يحكّمون العقل في كل شيء، فانتقدوا هذه الأساطير، وأطلقوا على من يطير في الهواء من القديسين بزعم العوام والأتباع الجهلة لقب: "القديسون الطيور Los Santos Pajaros ". وفي مثل هذه الخرافات كان أبو العلاء المعري يقول:

هل صح قول من الحاكي فنقبله أم كل ذاك أباطيل وأسمار
أما العقول فآلت أنه كذب والعقل غرس له بالصدق أثمار

ومما كان يتصف به أبو حنيفة الجد والصرامة وقلة الضحك؛ نادرا ما كان يمزح أو يسخر، غير أنه كان يقول أقوالا تنم عن سخرية عقلية من الآراء غير المعقولة، من ذلك ما حكاه علي بن عاصم إذ قال: "دخلت على أبي حنيفة وعنده حجام، يأخذ من شعره، فقال للحجام: تتبع مواضع البياض. قال الحجام: لا يود. قال: ولم؟ قال: لأنه يكثر. قال: فتتبع مواضع السواد، لعله

يكثر"[٥٤]. إن سخرية أبي حنيفة هنا من تصرف الحجام، وقد اعتمد فيها على قياس الضد، وهي سخرية عقلية.

ب ـ الجدل والصراع:

إلى جانب المعلومات التي تزخر بها سيرة أبي حنيفة يقف الجدل والصراع واضحا، وله عدة أسباب، منها البحث العلمي، ومنها المناظرة، ومنها الرغبة في الضرر والإيذاء، ومنها الحسد وهو أشدها. كان أبو حنيفة قد أوتي بسطة في العلم والمال والشهرة فحسده كثير من معاصريه من الفقهاء وغيرهم، وكل ذي نعمة محسود، ونتج عن الحسد أقوال كثيرة وضعها أولئك الحاسدون يقصد التشنيع على أبي حنيفة، ولكن الله كان يدافع عنه. وأسوأ التهم أنهم كانوا يشيعُون عنه أنه كان يردّ حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويأخذ برأيه، مما حمله على الدفاع عن نفسه أكثر من مرة، وكانت وسيلته أن يبين أصول مذهبه، وهي: أولا كتاب الله الكريم وثانيا سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وثالثا أقوال الصحابة يختار منها ما يراه مناسبا، وأخيرا يجتهد برأيه كما يجتهد التابعون[٥٥].

ومن أقوال المناوئين لأبي حنيفة هذا القول: "كان أبو حنيفة يجيئه الشيء عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيخالفه إلى غيره"[٥٦]. إن أبا حنيفة كان ينظر في متون الأحاديث، ويدقق فيها، ولا سيما الأحاديث التي فيها حكم فقهي فإذا صح عنده الحديث أخذ به، وإذا لم يصح فإنه يتركه، ويبحث عن غيره طبقا لأصول مذهبه، وليس في هذا مؤاخذة، ولا يطعن به أبو حنيفة؛ فإن الأحاديث زاد فيها الوضاعون زيادات كثيرة، وقد وجب التدقيق في المتون بشدة، والتساهل في هذا الأمر يفتح الباب لاضطراب مزعج بين المسلمين.

وقد كان أعداء الشيخ يشيعون عنه أنه يقدم القياس والرأي في المسائل الفقهية بين العوام، فيشيرون عليه الهمج، ويتهمونه بالبدعة، واتباع إبليس، لأن إبليس أول من استخدم القياس، وكان الإمام يضطر للدفاع عن نفسه، فيبيّن للناس معنى ما يستخدمه من القياس، والهدف الذي يرمي إليه بهذه الطريقة: إن إبليس استعمل ما استعمله من القياس ليرفض أمر الله، ففسق، أما أبو حنيفة فينظر في المسألة، ويبحث لها عن حل في الكتاب الكريم، وفي الحديث النبوي، وفي أقوال الصحابة، فإن وجد أخذ به، وإن لم يجد فإنه يقيس على أصل من هذه الأصول، وبهذه الوسيلة يجمع النظائر بعضها إلى بعض، ويجعلها تحت حكم واحد، وعليه فإنه متبع، وهو يهدف إلى طاعة الله، فأين هذا من قياس إبليس الذي فسق عن أمر ربه؟ [٥٧].

ومن المسائل المهمة التي أثارت جدلا عظيما في سيرة أبـي حنيفـة مسـألة الإيمـان، هـل هـو ثابت أو يزيد وينقص بالطاعات؟ كان الإمام يرى أن الإيمان ثابت، وأن العمل ليس جزءا منـه، وهـو يستند في ذلك إلى حديث عمر الذي رواه مسلم: "بينما نحن جلوس عنـد رسـول الله صلـى الله عليـه وسلم ـ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثيـاب، شـديد سـواد الشـعر، لا يـرى عليـه أثـر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأسند ركبتيه إلى ركبتيـه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام. فقال رسول الله ـــ صلـى الله عليـه وسلم ـ : الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيـم الصـلاة، وتؤتـي الزكـاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت، إن استطعت إليه سبيلا. قال: صدقـت. فعجبنـا لـه يسـأله ويصدقـه، قال: فأخبرني عن الإيمان. قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخـر، وتؤمـن بـالقدر خيره وشره. قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان. قال: أن تعبد الله كأنك تراه، فـإن لم تكـن تراه فإنه يراك. قال: فأخبرني عن الساعة. قال: ما المسؤول عنها بأعلم من السائل...." (٥٨).

ويعتقد أبو حنيفة أن إيمان أهل السماوات وأهل الأرض واحد، كما أن الكفر واحد(٥٩). هذا الموقف صحيح من حيث الأصل، وهو لا ينافي أنه يزيد وينقـص بالأعمـال، فالإيمـان كـأصل الشـجرة واحد، وهو ينمو بالسقي والتسميد والرعاية، وهو يذبل مع العطـش وعـدم الرعايـة، ولذلـك قـال الله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾.

وقد أتاح موقف أبي حنيفة من هذه المسألة الفرصة للمناوئين له؛ لكـي يطعنـوا فيـه، حتـى إنهم قالوا: إنه سوّى بين إيمان المؤمنين وإيمان إبليس، وشغبوا كثيرا، وكان أبـو حنيفـة يقـابل ذلـك بحلمه، واعتقاده في أن الإيمان واحد، والعمل بمعزل عنه، جعله لا يكفر أحدا بذنب، فلا يخرج مـن الإيمان إلا الشرك بالله، وهو يركن في موقفه هذا إلى قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وقد كان الخوارج على عهده يكفرون مرتكـب الكبـيرة. ولا ريـب أن موقف أبي حنيفة في عدم تكفير أحد من المسلمين عامل قوي في توحيـد الأمـة، وتقويتهـا، وقـد وهـن المسلمون منذ صاروا شيعا وجماعات متفرقة، كل جماعة تكفر الأخـرى، فسـهل هـذا لأعـداء الإسـلام اختراق الديار الإسلامية واحتلالها ومص خيراتها والعمل على تخلفها ونشر الفوضى فيها.

ورغم أن أبا حنيفة كان حسن الجواب عن المسائل فإنه كـان يقـول: "قولنـا هـذا رأيٌ وهـو أحسن ما قدرنا عليه، فمن جاءنا بأحسن من قولنا فهو أولى بالصواب منا"(٦٠). وهذا تواضع من أبـي حنيفة، وهو تواضع صادق، فقد كان يترك رأيه، ويأخذ رأي مناظره إذا وجده أصح من رأيه، ويعلـن ذلك بصراحة، ومن ذلك أنه كان في مجلس أمير الكوفة، وكان الأمير قد جمع علماءها، وفيهم الحسن

ابن عمارة، فسألهم الأمير عن مسألة، فأجاب كل واحد منهم جوابا، فقال أبو حنيفة: إننا أخطأنا جميعا، وأصاب الحسن بن عمارة، وقد كان الحسن هذا في بدء أمره يعادي أبا حنيفة، ومنذ هذه الواقعة أحبه، وعلم أنه ورع، يقر بالحق، ولو كان الحق مع عدوه(٦١).

ويظهر من السيرة الحنفية أن الجدل والصراع لم ينته بموت أبي حنيفة، وإنما ازداد حدة مع مرور الزمن، حتى إن أحدَ الناس قد كتب كتابا شنع فيه على أبي حنيفة كثيرا، فناقضه الكردري، وشنع في مناقضته على الشافعي، وهي طريقة فاسدة من مقلدي المذاهب، قال ابن حجر الهيتمي: "اعلم أن بعض المتعصّبين ممن لم يمنح توفيقا جاءني بكتاب منسوب للإمام الغزالي فيه من التعصب الفظيع والحط الشنيع على إمام المسلمين وأوحد الأئمة المجتهدين أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ ما تصمّ عنه الآذان، ويقول عند سماعه الموفق: ليت ذلك ما كان! كيف وقد أدى ذلك شمس الأئمة الكردري إلى أن بسط الكلام في رد ذلك الكتاب، وقابل مؤلفه مقابلة الفاسد بالفاسد، فشنع على الشافعي ـ رحمه الله ـ أعظم من ذلك التشنيع، وبسط الكلام بما لا يحمد من الصنيع، كل ذلك منه بناء على أن الغزالي هو الإمام محمد حجة الإسلام، وليس هو هو لما يأتي في إحيائه من مدح أبي حنيفة، وترجمته بما يليق بعلي كماله، وأيضاً فلأن النسخة التي رأيتها مكتوب عليها أن هذا الكتاب تصنيف محمود الغزالي، ومحمود هذا ليس بحجة الإسلام"(٦٢).

وقد بلغ الصراع مبلغه بأن وضع الأحناف المتعصبون أحاديث رفعوها إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وغايتهم منها الإعلاء من شأن الإمام أبي حنيفة، وكان رد فعل الآخرين من متعصبي المذاهب الأخرى هو نسج روايات للحط من شأن هذا الإمام الجليل، وكلا العملين خاطئ. من أمثلة هذا الأحاديث: "يكون في أمتي رجل يقال له أبو حنيفة النعمان هو سراج أمتي إلى يوم القيامة"(٦٣). وقد حكم بوضع هذه الأحاديث عبد الرحمن بن الجوزي وتابعه الحافظ الذهبي وابن حجر الهيتمي.

ومن التعصب المقوت قول خلف بن أيوب: "صار العلم من الله تعالى إلى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم صار إلى أصحابه، ثم صار إلى التابعين ثم صار إلى أبي حنيفة وأصحابه، فمن شاء فليرض، ومن شاء فليسخط"(٦٤)، أي أن أصحاب المذاهب الإسلامية الأخرى لا علم لهم، وهذا كيد شديد، كان من جرائه أن وضع الآخرون مثل هذا النص: "لم يزل أمر بني إسرائيل معتدلا حتى ظهر فيهم المولدون، أبناء سبايا الأمم، فقالوا فيهم بالرأي، فضلوا وأضلوا. قال سفيان: ولم يزل أمر الناس معتدلا حتى غير ذلك أبو حنيفة بالكوفة، وعثمان البتي بالبصرة، وربيعة بن أبي عبد الرحمن بالمدينة، فنظرنا فوجدناهم من أبناء سبايا الأمم"(٦٥).

إن الإسلام لا يعرف هذا التعصب أبدا، فالقرآن يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فالتقوى هي الأساس في المفاضلة، وليس الأصل أو الجنس أو اللون أو الغنى أو الفقر، ويصدق ذلك حديث النبي (لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى). لقد نسي المقلدون للمذاهب الإسلامية هذه النصوص الصحيحة، وحملهم التعصب الأعمى على التهارش والتشاتم والكذب.

ج- المنامات والبشارت:

في السير العربية القديمة تكثر الأحلام والبشارات، وكان العرب يعولون عليها كثيرا، ووجد فيهم ناس يعبرون الرؤيا، كابن سيرين، وقد اعتنى الدارسون للأحلام في أوربا بجمعها وتحليلها، وبخاصة فرويد وأتباعه، وحاولوا منها فهم النفس الإنسانية وفك عقدها الكامنة في اللاوعي.

وللأحلام أشكال مختلفة، فبعضها يكون منسقا له معنى مستقيم، وبعضها يأتي مضطربا بدون نظام(٦٦)، ومرجع الأحكام إلى ما يشغل ابن آدم من آمال وآلام، وما يواجهه في الحياة اليقظة من رضا وغضب، وخوف وأمن، وربح وخسارة، ونجاح وفشل، إلى غير ذلك، فينعكس كل ذلك بطرق مختلفة عند النوم.

وترد في سيرة أبي حنيفة عدة منامات، بعضها رآه هو، وبعضها رآه آخرون له بعد وفاته، ولذلك تختم سيرته بهذه المنامات التي تسوق البشرى أو غيرها. والحلم مقطع مهم في السيرة؛ لأن له دلالة، وهو ملتحم بسياق السيرة. إن الرؤيا التي رآها أبو حنيفة في منامه هي: "رأى كأنه ينبش قبر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وجمع عظامه فوضعها على صدره بعد أن استخرجها"(٦٧). وقد اغتم أبو حنيفة لهذه الرؤيا، ثم سأل عنها ابن سيرين، فعبّرها بأن صاحبها يجمع علم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وينشره في الناس. فاطمأن الإمام أبو حنيفة، وانشرح صدره، وأخذ في الدرس ونشر العلم بجد.

والأحلام التي ترد فيها شخصية الرسول تعد حقيقة صحيحة، لأن الشيطان لا يأتي في صورة النبي، فمن رأي الرسول فقد رآه حقيقة كما يعتقد المسلمون، ولكن الرموز الواردة في هذا الحلم هي التي تحتاج للتأويل، وقد أولها ابن سيرين مفسر الأحلام. ومن سياق هذه الرؤيا نلاحظ تأثيرها في أبي حنيفة، إن لها تأثيرين: الأول الخوف والوجل عقب استيقاظه من نومه، وقبل التفسير. الثاني الفرحة والنشاط عقب شرح دلالة الحلم، وقد استمر هذا التأثير الثاني إلى أواخر حياة أبي حنيفة. وهذا حلم آخر رآه الحسن بن صالح، قال أبونعيم: "... صرت إلى الحسن بن صالح، فقال حين رآني: يا أبا نعيم، علمت أني رأيت أخي البارحة في منامي كأنه صار إليّ، وعليه ثياب خضر، فقلت

له: يا أخي أليس قد متّ؟ قال: بلى. قلت: فما هذه الثياب التي عليك؟ قال: السندس والإستبرق، ولك يا أخي عندي مثلها. قلت: ماذا فعل بك ربك؟ قال: غفر لي، وباهى بي وبأبي حنيفة ـ رضي الله عنه ـ الملائكة. قلت: أبو حنيفة النعمان بن ثابت؟ قال: نعم. قلت: وأين منزله؟ قال: نحن في جوار في أعلى عليّين"(٦٨).

هذا منام رآه هذا الرجل الصالح، رأي أبا حنيفة عن طريق رواية أخيه الذي توفي، وصار في أعلى عليين، يتمتع في الجنة حيث يشاء، وهو يرفل في السندس والإستبرق، وكذلك أبو حنيفة جاره هناك. ودلالة هذا الحلم متعددة فهي تطمئن محبي أبي حنيفة، وتجعل من تبع مذهبه يتمسك به، وقد صيرت أبا نعيم كلما ذكر أبا حنيفة يستحسن ذكره، ويقول: بخ بخ، في أعلى عليين. وأما الملابس الحريرية: السندس والإستبرق، فهي رمز النعيم المقيم، وأعلى عليين رمز لعلو المكانة، وهما واردان في القرآن الكريم، فهل يمكن أن يدل هذا الحلم على ثقافة الرّائي أو الحالم؟ إن جورج ديفرو يري أن الحلم يخضع للمؤثرات الثقافية(٦٩)، ويبدو لي أن هذا صحيح من خلال هذا الحلم، فثقافة الحسن بن صالح الإسلامية قد لونت هذا الحلم بلونها.

بيد أن مشكلة الأحلام تتعقد أكثر حينما ننظر في حلم رواه الخطيب البغدادي، وهذا نصه: "قال بشر بن أبي الأزهر النيسابوري رأيت في المنام جنازة عليها ثوب أسود، وحولها قسيسون، فقلت: جنازة من هذه؟ فقالوا: جنازة أبي حنيفة. حدثت به أبا يوسف، فقال: لا تحدث به أحدا"(٧٠). إن الخطيب البغدادي قد أنهى سيرة أبي حنيفة بهذا الحلم، علئ النقيض مما أنهى به الذهبي ما كتبه عن أبي حينفة. وقد أثار هذا العمل كثيرا من الأحناف فكتبوا كتبا كاملة في الرد على الخطيب، واحتوت هذه الردود كثيرا من الهجوم عليه، والتفنيد لكل ما ختم به كتابته عن أبي حنيفة. من هذه الردود الكتب الآتية:

١- السهم المصيب في الرد على الخطيب، للملك المعظم عيسى بن أبي بكر الأيوبي.

٢- السهم المصيب في نحر الخطيب، للسيوطي.

٣- تأنيب الخطيب على ما ساقه في ترجمة أبي حنيفة من الأكاذيب، لمحمد زاهد الكوثري، وقد طبع بالقاهرة، سنة ١٩٤٢م.

إن حلم بشر بن أبي الأزهر النيسابوري ـ إن صدق ـ يشير إلى موقفه من أبي حنيفة؛ إذ يبدو أنه كان من المعادين لأبي حنيفة، ولاتجاهه الفقهي، فظهرت العداوة في المنام على شكل هذا الحلم الفظيع، فعلاقة هذا المنام بالحالم، وليست له علاقة بأبي حنيفة. إن الدراسات الحديثة المتصلة بالأحلام في علم النفس ترجع الأحلام كلها إلى العالم الداخلي للإنسان(٧١)، على النقيض من

الدراسات القديمة التي كانت ترى للمنام علاقة كاملة بالعالم الخارجي، حتى إن الاعتقادات كانت سائدة بأن أرواح الأحياء تلتقي بأرواح الموتى في المنام، وأن الصلة كاملة، وقد ينتقل العلم عن طريقها، وهذه كلها مسائل شائكة لأنها متصلة بالسر الإلهي الذي هو الروح، ولكن المحاولات البشرية دائبة ساعية للاستطلاع والمعرفة، وفي النشاط تكمن اللذة الكبرى.

وانتقل صراع المنامات من الشخص، شخص أبي حنيفة ومصيره في الآخرة، وإلى علمه، هل يدرس أو لا يدرس؟ وكانت شخصية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دائما حاضرة في تلك الرؤي، فهذا منام رواه الخطيب: "قال محمد بن حماد: رأيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ في المنام، فقلت: يا رسول الله، ما تقول في النظر في كلام أبي حنيفة وأصحابه؟ أنظر فيها وأعمل عليها؟ قال: لا.لا.لا. ثلاث مرات. قلت: فما تقول في النظر في حديثك وحديث أصحابك؟ أنظر فيها وأعمل عليها؟ قال: نعم. نعم. نعم. ثلاث مرات. ثم قلت: يارسول الله، علمني دعاء أدعو به. فعلمني دعاء، وقال لي ثلاث مرات، فلما استيقظت نسيته"(٧٢).

إن هذا المنام يدعو صراحة إلى ترك علم أبي حنيفة، وإلى البعد عن علم أصحابه، ويوجه إلى البحث في الحديث الشريف، والتنقيب في أقوال الصحابة ـ رضي الله عنهم. ولا شك.أن هذا الحلم انعكاس لموقف هذا الرجل في عالم اليقظة من علم أبي حنيفة وتلاميذه.

وعلى النقيض من المنام السابق تماما يقف هذا الحلم الذي ذكره ابن حجر الهيتمي في سيرته عن أبي حنيفة: "عن مسدد بن عبد الرحمن البصري أنه نام بمكة بين الركن والمقام قبيل الفجر، فرأى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال: يا رسول الله، ما تقول في هذا الرجل الذي بالكوفة النعمان بن ثابت، آخذ من علمه؟ فقال صلى الله عليه وسلم: خذ من علمه، واعمل بعمله، فنعم الرجل هو! قال: فقمت وكنت أكره الناس للنعمان، وأنا استغفر الله مما كان مني"(٧٣).

هذا الحلم قصة مضغوطة آخرها هو أولها في الترتيب الزمني، فقد كان مسدد ابن عبد الرحمن يكره أبا حنيفة كرها شديدا، عبر عنه بقوله: "كنت أكره الناس للنعمان"، وقد حمله بغضه على أن يبتعد عن أبي حنيفة طيلة حياته، فلما مات استمرت الكراهية، حتى إذا كان بمكة، في البيت الحرام، ونام بين الركن والمقام، في هذا المكان الطيب، قبيل الفجر، وهو زمان طيب، أحلى ما تكون المنامات فيه، رأى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ففرح برؤيته، واستغل الفرصة، ليسأله عن المشكلة العويصة التي تقلقه، وهي مشكل أبي حنيفة، وعلمه أيضاً؟ إن أبا حنيفة مات، فانحصرت القضية فيما خلفه من الفقه، هل يأخذ منه شيئا، ويعمل به؟ فجاء جواب النبي قاطعا بأن يأخذ منه، ويعمل بعمله، وهذه شهادة الرسول بصحة علم أبي حنيفة، وتلك دعوته للنافرين منه أن

يقتربوا، وأن يتفقهوا بفقهه. ثم تأتي كلمة الثناء من النبي على أبي حنيفة: (نعم الرجل هو)، لتجبّ كل ما كان يقال عنه، وما كان يبث البغضاء في قلب مسدد. وتختم القصة بتحول في موقف مسدد، تحول شديد من الضد إلى الضد، لقد صار يحب أباحنيفة، ويستغفر الله مما وقع فيه من سوء الظن بالرجل، والكراهية له.

إنه شيء مشوّق أن نرى صراع المنامات حول أبي حنيفة، وحول علمه، كما رأينا صراع أهل العلم من قبل. إن هذا المشهد الدرامي الذي يموج فيه الناس، حال اليقظة والمنام، يجعل للسيرة جاذبية خاصة، ومذاقا متميّزا.

د- الحكاية في سيرة أبي حنيفة:

لقد احتوت هذه السيرة في تركيبها على عدد من الحكايات التي جرت في الواقع، فأسهمت في وضوح الدلالة المقصودة في السياق الذي وضعت فيه، كما حققت التأثير في القارئ من حيث لا يشعر، وصرفت عنه السأم، فلم تعد السيرة مستودعا للبيانات المعرفية فحسب، وإنما أضافت إلى ذلك بعدا جماليا مؤثرا.

من الحكايات الواردة في السير حكاية الأعمش وزوجته وما حدث بينهما من خلاف. وإنه لمن الأفضل أن نورد القصة كما هي؛ ليتأملها القارئ مليا: "وقع بين الأعمش وامرأته كلام في جوف الليل، فجعل الأعمش يشتم امرأته ويضربها، فلما أقلع عن ضربها جعل يكلمها فلا تجيبه، ولا تكلّمه، فغضب الأعمش وقال: لم لا تجيبينني ولا تكلمينني؟ فقالت ابنته: إن لم تكلمك الليلة تكلمك إذا أصبحت. فقال الأعمش: إن لم تكلمني الليلة فهي طالق ألبتة. فقالت البنت: كلميه. فأبت. فاغتم له الأعمش، وندم، وجعل يتفكر، فتلبس، وخرج من المنزل قاصدا إلى أبي حنيفة، فلما بلغ المنزل وجد الباب مغلقا، فدق الباب، فخرج حماد ابنه، فقال: من ذا؟ قال هذا سليمان. قال: ومن سليمان؟ قال: سليمان الأعمش. قال: ففتح حماد، وأخبر أباه بمجيئه، فخرج أبو حنيفة، وأدخله المنزل، وأجلسه على الصدر، وجلس بين يديه، وقال: حاجة مهمة في هذا الوقت، ألا أرسلت إليّ فآتيك؟ فجعل الأعمش يتكلّم شبه المعتذر، فقال له أبو حنيفة: دع الاعتذار، وتكلّم فيما جئت له. قال: كان بيني وبين امرأتي كلام، فأغضبتني وامتنعت عن الكلام، فحلفت إن لم تكلمني هذه الليلة فهي طالق ألبتة، فأبت أن تكلّمني، وخفت أن تطلق إذا أصبحنا، وهي تريد الفرار منّي، أخاف أن تؤذيني وقد طالت صحبتها، وهي أم الأولاد، فهل من حيلة تكشف عني هذا الغم؟ فقال له: أبو حنيفة: هوّن على نفسك هذا الغم؛ فإن الفرج قريب إن يسر الله. فبعث رجلا يدعو له مؤذن مسجد الأعمش، فذهب الرجل وجاء به، فقال له أبو حنيفة: إذا دخل الأعمش منزله، وقرب وقت الصبح

فأذن قبل أن ينفجر الفجر، فإن فيه انكشاف غمه، إن شاء الله تعالى، فانصرف الأعمش، ودخل منزله، ينتظر الأذان فلما كان قبل طلوع الفجر أذن المؤذن. قال: فلما سمعت امرأة الأعمش الأذان قالت: الحمد لله الذي أراحني منك أيها الشيخ السيّئ الخلق. فقال لها الأعمش: لم نصبح بعد، حيلة وقعت ونعمت الحيلة! رحم الله من دل عليها"(٧٤).

إن سليمان الأعمش كان من المناوئين لأبي حنيفة، وكان الإمام يعرف ذلك، ولكنه كان متسامحا، كما يظهر من هذه الحكاية، فالقصة مسوقة للدلالة على أن الشيخ أبا حنيفة لم يحمل حقدا لأحد، وأنه كان يغيث اللهفان، عدوا كان أو حبيبا، وأن علمه كان بركة للناس، فهذا الأعمش لما تشاجر مع زوجته في جوف الليل، واشتدت المشاجرة، وانتهت بصمت المرأة الرهيب، حتى إن الرجل طلقها طلاقا معلقا على شرط، تهديدا ورغبة في كلامها، ولكنها ركبت رأسها، فلم تتكلم، وعندئذ تتوسل البنت لأمها أن تكلم أباها؛ لتنتهي المشكلة، ولكن الأم كانت قد سئمت الحياة مع هذا الأب الغشيم، فذهبت توسلات البنية هباء. وهنا وصلت العقدة ذروتها، فماذا يصنع الأعمش؟ إن الخوف بدأ يسري في نفسه، خوفا من ذهاب المرأة، وتشرد الأولاد، ورهبة من أن توقع به، وخشية من أن تفضحه، لقد ضاقت الدنيا بالأعمش، فظل يتفكر: كيف يصنع؟ ولما لم يجد حلا، تذكر أبا حنيفة، وأيقن أنه بعلمه، وثاقب فكره، سيحل هذه المعضلة التي استحكمت حلقاتها، ولكنه كان يؤذي أباحنيفة، ولا شك أنه قد دار بخلده ما صنعه بالإمام، وكان كلامه يبلغ ذلك الإمام، إلا أن سماحة الإمام وحلمه كان يقاوم هذه الهواجس في نفسه. فذهب إلى أبي حنيفة في وقت ليس وقت الزيارة، لقد هجع الشيخ، ولكن المشكلة لا تنتظر الصباح، إن لم تحل في الليل، فستكون المشكلة مشاكل عديدة في النهار، دق سليمان الباب، وفتح له حماد ابن الإمام، وتلقاه أبو حنيفة لقاء حسنا، أجلسه في أحسن مكان، ولم يبد له شيئا مما كان يأتيه الأعمش في حقه، وأخذ سليمان يعتذر من كل ما صنع، كما يعتذر لأنه جاء في وقت غير مناسب، إلا أن رحمة أبي حنيفة حفظت على الرجل ماء وجهه، فطلب منه الإمام أن يعرض مشكلته التي دفعته إلى المجيء في هذه الساعة المتأخرة من الليل، فعرض الأعمش أزمته، فهوّن عليه الإمام تلك المسألة، وحلها بهذه الطريقة اللطيفة، لقد حل العقدة بالأذان قبل أن يحين الوقت؛ فكلمت المرأة زوجها، وزالت الغمة التي جثمت على صدر الزوج الشَّكِس.

إن هذه القصة عامل من العوامل الفعالة في سيرة أبي حنيفة، وهي وسيلة من وسائل التعبير التي استخدمها كتاب المناقب، وقد أدت هذه الأداة الدلالة المطلوبة في السياق الذي وضعت فيه. كما أنها في حد ذاتها توحي إلى القارئ بذكاء أبي حنيفة الخارق، فهي متعددة الدلالة إن جاءت في بناء

السيرة، أو قامت وحدها، غير أنها في سياق السيرة يكون أداؤها للمعاني أكثر وأبلغ من قطعها عن النسيج العام للسيرة الحنفية.

ويرتبط بالحكاية تلك الطرف والنوادر المذكورة في السيرة. وهي ذات وظيفة خاصة في بناء السيرة، وتظهر وظيفتها من سياقها، من هذه النوادر هذه الطرفة: "كان أبو أسيد يجالس أبا حنيفة، وكان شيخا عفيفا مغفلا، فقال مرة في مجلس أبي حنيفة لرجل: أرفع ركبتك؛ فإني أريد أن أبول، وإنما أراد أن يبزق. فقال الرجل لأبي حنيفة: ألا تسمع ما يقول؟ قال أبو أسيد: أليس يقال: إذا جالست العلماء فجالسهم بقلة السكينة والوقار. فضحك أبو حنيفة والقوم منه"(٧٤) إن هذه الطرفة لها دلالة في نفسها، ولها دلالة في سياقها؛ أما دلالتها في نفسها فتكمن في إبراز موقف هذا الرجل الطيب المغفل، إنه سليم النية، ولكن ضعفه العقلي يجعله ينطق بتراكيب من المحال، هو يريد أن يقول شيئا صحيحا، فتأتي العبارة بمعنى مضحك، وهنا تكون المفارقة الباعثة على الضحك، والرثاء أيضاً. وأما دلالة هذا النص في السياق فتشير إلى حسن خلق الإمام أبي حنيفة، وتدل على سعة صدره، فهو يجالس النبية والمغفل، ويتسامح مع هؤلاء البائسين، الذين ضعف عقلهم، فاستولى عليهم السهو، وصاحبتهم الغفلة.

وفي السيرة من النوادر ما يصدر عن العداوة، مثل هذه النادرة: "قال يوسف ابن خالد السمتي: "دخلت مع أبي حنيفة الحمام، وشيطان الطاق جالس متجرد، أو ليس عليه إزار ولا شيء، فغمض أبو حنيفة عينيه، فقال له شيطان الطاق: مذ كم أعمى الله بصرك؟ قال: مذ هتك الله سترك"(٧٥). ولا ريب أن هذه الطرفة مُرّة المذاق، ولكن موضع الإعجاب فيها ثابت في سرعة الجواب، وهو من الجوابات المسكتة، التي تصدر عن إلهام. فشيطان الطاق كان يعادي أبا حنيفة، ولم يكن يكف عن مشاكسته، وكان أبو حنيفة يرد عليه أذاه، ولا يزيد على ذلك، فإشارة هذه النادرة متجهة إلى إظهار عدة جوانب: الأول هذه العداوة المستحكمة بين الطرفين. الثاني: الحماقة من جانب شيطان الطاق، حتى إنه يتجرد بالكامل في مكان عام، والعفة وحسن الأدب وتمام العقل من جانب أبي حنيفة. الثالث: تهجم شيطان الطاق على الشيخ الكريم، عند تغميضه عينيه حتى لا يرى عورة العاري، ثم رد الإمام هذا الرد الموجز المفحم في الوقت نفسه.

ويتصل بالنوادر اللغز، والألغاز بين العلماء كانت تقوم على مسائل علمية، وتبنى على أساس الغموض اللغوي في الغالب، وهو الغموض النابع من المشترك اللفظي، أي أن يكون للكلمة أكثر من معني. وأحدها فقط هو المقصود، وقد كانت الألغاز والأحاجي في العصور الأولى من الإسلام قليلة، ثم كثرت مع مرور الزمان، حتى طمت أيام المماليك والعثمانيين. ومن الألغاز التي سجلها

كتّاب سيرة أبي حنيفة هذا اللغز: "حكي عن محمد بن مقاتل أن رجلا قصد أبا حنيفة، فقال: ما تقول في رجل لا يرجو الجنة، ولا يخاف الله، ولا يخاف النار، ويأكل الميتة، ويصلي بلا ركوع ولا سجود، ويشهد بما لا يرى، ويبغض الحق، ويحب الفتنة؟ فالتفت أبو حنيفة إلى أصحابه، وسألهم عن الرجل، فأكفره بعضهم، وسكت بعضهم، فقال أبو حنيفة: هذا الرجل لا يرجو الجنة، ويرجو الله تعالى، وأي رجاء له من الجنة؟ ولا يخاف النار، ويخاف رب النار، ولا يخاف الله تعالى أن يجور عليه في عدله وسلطانه، ويأكل الميتة يعني السمك إذا خرج من الماء، ويصلي بلا ركوع ولا سجود، يعني صلاة الجنازة، ويشهد بما لا يرى أن لا إله إلا الله، وفي رواية يشهد بيوم القيامة، ويبغض الحق يعني الموت، ويهرب منه، ويحب الفتنة، يعني المال والولد. فقام الرجل، فقبل رأسه، وقال: أشهد أنك للعلم وعاء، واستغفر الله مما قلت فيك"(٧٦).

إن حل الألغاز يدل على حدة النشاط العقلي، كما يوحي بسعة المعرفة، ويشير إلى حسن التصرف في تقليب كلمات اللغز حتى يظفر بالجواب الشافي. وفي هذا اللغز يبدو ذكاء أبي حنيفة، ودقة جوابه على هذه الأسئلة التي تحمل في ظاهرها شيئا يختلف عما هو في باطنها. ويلاحظ أن اللغز الوارد هنا ينتمي إلى الألغاز الفقهية، وهو النوع الجاري بين الفقهاء عادة.

هـ - الموازنة بين أبي حنيفة وغيره من أهل العلم:

اشتملت سيرة أبي حنيفة على موازنات بين الإمام وأتباعه وبين غيره من الفقهاء وأتباعهم، وهي من الأجزاء المهمة في السيرة؛ إذ يتضح فيها الميزان العلمي الصحيح والأهواء الفاسدة. والموازنة عمل مشروع في العلم والفن؛ إلا أنها ينبغي أن تعقد على أساس من البحث عن الحق، وليس على أساس نصرة المحبوب، وكذلك فإن الموازنات البناءة هي التي تدور حول الإنتاج العلمي والأدبي، ومن ذلك الآن الفقه المقارن الذي يوازن بين الآراء التي تطلق في مسألة واحدة، ويرجح بينها، ويعلل لهذا الترجيح، وأيضاً الأدب المقارن، والدين المقارن، وغير ذلك من المقارنات التي تنشأ من الموازنة.

غير أن الموازنة في السيرة تنبثق أساسا من المواقف المختلفة في الحياة، فالموقف السياسي والأدبي والعلمي يعني بإظهاره كثيرا. وبعد أن كانت الموازنات تعقد لفهم المسائل، صار يقصد بها التفضيل المطلق لهذا الشخص أو ذاك، ثم طمت الطامة فأصبح التفضيل هو كل شيء في عملية الموازنة برمتها، مما سبب الفرقة بين الناس، واتخذ بعض الفئتين مسألة التفضيل تكأة يتكئون عليها للغمز واللمز، ولذلك فشت العداوة والبغضاء بين أتباع المذاهب، مما استوقف نظر العلماء الصادقين، وجعلهم يحذرون من التفضيل جملة، يقول ابن حجر الهيتمي: "وكثيرا ما يؤدي التفضيل إلى الخصام القبيح بين السفهاء ومن لا خلاق لهم ولا دين ولا تقوى، إلى أن يظهر من بعضهم قبيح المعصية وحمية

الجاهلية، يفضي ذلك بهم إلى ترجيح مذهب إمامه، وإطلاق لسانه في غيره بعدم أدب وغفلة تامة عما يترتب بسبب ذلك من المقت والخزي، وإلى أن ينتصر بعض مقلدي مخالفه لإمامه، فيرد على الأول، ويطلق لسانه فيه، ويتعدى إلى إمامه، ويطلق لسانه فيه زاعما أن ذلك من باب مقابلة الفاسد بالفاسد..." (٧٧).

وقد حدثت مشاجرات كثيرة بين أتباع أبي حنيفة وأتباع غيره من أصحاب المذاهب، ولا سيما الشافعي؛ لهذا فإن كثيرا من الرسائل التي كتبت في تفضيل هذا الإمام أو ذاك أقرب إلى قصائد المدح والهجاء، وبعضها مثل النقائص الشعرية في الأدب العربي، تعني بمدح الإمام، والحط من غيره، ثم يأتي الآخر فيعكس المسألة برمتها. كتب عتيق بن داؤد اليماني رسالة في فضل أبي حنيفة، قدم فيها أبا حنيفة على غيره من الأئمة، ورفع أصحابه وتابعي مذهبه فوق أصحاب الأئمة الآخرين، ولم يستثن أحدا من ذلك؛ من هذه الرسالة هذا المقطع: "وإنما قدمنا مذهب الإمام على سائر المذاهب لتقدم رتبته على سائر المراتب؛ ولأنه أقدم وأقوم، وأحكم وأسبق، وأحق، وأدق، وأقصر وأحصر وأيسر، وأجمع وأمنع...، وللقرآن أكثر موافقة، وللسنة أشد مساوقة، وللصحابة أكثر اتباعا، ومع السلف أوفر إجماعا، وأصلح سلفا، وأرجح خلفا، وأعلم وأعظم أصحابا، وأقطع جوابا صوابا..."(٧٨).

هكذا سار الكاتب الحنفي في رسالته المطولة، يستعمل أفعل التفضيل الذي يفيد عموم التقديم في الموازنة والمقارنة، فالإمام وأتباعه هم أعظم الناس وأحسنهم على الإطلاق، ثم يعلل لذلك بأنهم أكثر الناس اتفاقا مع الكتاب الكريم والسنة المطهرة، وأنهم أشد اتباعا للصحابة الأجلاء، ويلاحظ أن الكاتب قد نقض هنا ما يأخذه المناوئون للأحناف في مذهبهم، ويشهرون به، وهو اعتمادهم على القياس والرأي، وبعدهم عن الأصلين: القرآن والحديث. ويعلل المؤلف للمبالغة في قوله السابق تعليلا عجيبا، منه قوله: "لكنا أطلقنا لأنهم أطلقوا، وكنا في الحلبة الأولى، وهم التوالي، ونحن السوابق..." (٧٩)، أي أن الكلام الذي خطه عتيق من أوله إلى آخره إن هو إلا رد فعل لما ركبه أتباع المذاهب الأخرى، وخاصة الشافعية. وربما كان ما كتبه السيوطي في كتابه: **تبييض الصحيفة في مناقب أبي حنيفة** محاولة من هذا الفقيه الشافعي لقمع الفتنة بين أصحاب المذهبين، وتبعه في هذه المحاولة ابن حجر الهيتمي، وهو شافعي أيضاً، في كتابه: **الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان**.

ويبدو التفضيل والموازنة بين أبي حنيفة وغيره بطريقة غير مباشرة عندما يتحدثون عن رفض هذا الإمام لمنصب القضاء، وقد حاول ابن هبيرة أن يوليه، فأبى إباء شديدا، رغم أن ابن هبيرة اشتد معه، حتى ضربه كل يوم عشرة أسواط، واستمر الضرب لمدة عشرة أيام. واستدعاه الخليفة

المنصور إلى بغداد، وعرض عليه القضاء، فرفض رفضا باتا[٨٠]، ولم يتول أي منصب في الدولة، على حين كان كثير من العلماء يسعون سعيا حثيثا لنيل هذه المكانة. كذلك فإن أبا حنيفة لم يكن يأتي إلى أبواب الأمراء والخلفاء إلا بدعوة منهم، بينما كان قوم من أهل العلم يتزلفون إلى الحكام، ويسلكون طرقا ملتوية للوصول إلى مجالس الولاة والكبراء من رجال الدولة.

وتزداد فضيلة أبي حنيفة، ويفوق غيره في الورع، عندما يكتب مؤلفو سيرته سبب موته، فهم يجعلونه موقفا دراميا حزينا، إذ يوردون أنه مات في السجن؛ لأنه لما رفض تولى القضاء سجنه المنصور في بغداد، فمات غما بالحبس، أو لأنهم عذبوه، وكان في سن السبعين، فلم يتحمل، فمات. على أن رواية أخرى ترجع سبب موته إلى خروجه على العباسيين، وتأييده لإبراهيم في ثورته على المنصور، وكان يجهر بالكلام ضد العبّاسيين، فبلغ موقفه أبا جعفر المنصور، فاستدعاه إلى بغداد، وهناك قتله بالسم[٨١]، إلى غير ذلك من الحكايات التي تختم الفصل الأخير في سيرته، وكان موته عام خمسين ومئة من الهجرة.

ـ ٥ ـ

إذا أراد قارئ سيرة أبي حنيفة تقييمها فإنه سيجد ثلاثة أنواع من القيم: القيمة الأخلاقية والقيمة المعرفية والقيمة الجمالية. أما القيمة الأخلاقية فهي قيمة عملية، تظهر في رسم النموذج المثالي للبطل، وهو محل القدوة لدى كثير من الناس، سواء كانوا على مذهبه أو على غير مذهبه. فأبو حنيفة ـ كما كتب الكاتبون عنه ـ رجل ورع، حريص على العلم درسا وتدريسا، صبور على ذلك، وهو كثير العبادة صلاة وصياما ودعاء واستغفارا، وهو غني بدت النعمة عليه في نفقته، طعاما وشرابا ولباسا، وظهرت في إنفاقه على أهل العلم، وإهدائه لأصحابه من العلماء. وهو حليم، يؤذي فيصير، وهو تعرض عليه الدنيا، ويضرب من أجل أخذها، فيزهد فيها، ويموت على ما يرضي ربه. هذه الصورة الجليلة تتسرب إلى قلب القارئ وعقله فتحدث تأثيرا في سلوكه؛ لأن القراءة الصحيحة عملية هدم وبناء، في الفكر وفي السلوك. وكل الوقائع التي ذكرت في سيرته دليل حي مؤثر ينير طريق الخير للمتلقي، وهي إرشادات وعظية بأسلوب غير مباشر، وفي هذا الأسلوب الأخلاقي التعليمي غير المباشر تكمن القيمة الأخلاقية للسيرة، وهذه الطريقة في التعليم هي التي تجعل السيرة جزءا من الفنون الأدبية، بالإضافة إلى العناصر الأخرى.

والقيمة المعرفية في هذه السيرة غزيرة غزارة بالغة؛ فهي تمدنا ببيانات كثيرة عن شخصية أبي حنيفة: عن تاريخ ميلاده ووفاته، عن تربيته وأصوله، عن العلوم التي أحبها وبرع فيها، عن الشيوخ الذين تلقى عنهم، عن التلاميذ الذين استفادوا منه، عن علاقته بغيره من الناس من كافة

الطبقات، عن الحوادث والثورات التي جرت في أيامه، وكيف كان موقف السلطة منهـا، وغـير ذلـك كثير. وهذه القيمة المعرفية هي التي تجعلها مصدرا من مصـادر التـاريخ بأنواعـه أو فروعـه المختلفـة، ويضاف إلى ذلك أن هذه القيمة تجعل فن السيرة ممتعا للفكر، مثيرا للدهشة عنـد المتـأمل، مفيـدا لـمن يبحث عن الفائدة المباشرة في القراءة.

والقيمة الجمالية في سيرة أبي حنيفة تنبع من نظمهـا الجيـد، ولغتهـا السـهلة المرسـلة. إن الأدب في العصر العباسي قد اتجهت لغته إلى التعقيـد باسـتخدام أنـواع البديـع، مـن سـجع وجنـاس وطباق ومقابلة، واستعارات وكنايات وتعريض وإشارات، ويبدو كل هذا في الرسائل والمقامات لمن شـاء أن يتعمق في معرفة هذه الناحية. أما السيرة فقد نجت من هذا التعقيد، وظلت تسبح في عالم البساطة، والجمال الطبيعي الذي لا تكلف فيه. وقد حققت القيمة الجمالية إمتاعا للقارئ، واسـتخدمت السـيرة في نهجها أساليب مختلفة كالخبر المباشر والقصة أو الحكايـة، والطرفـة، واللغـز، والصـراع والجـدل والمناظرات، وقد وضع الكل وضعا حسنا، يبين عن الغرض المقصود من سيرة أبي حنيفة، لكن لا شك أن سلسلة الإسناد كانت تعوق القارئ، وتقطع اللذة الجمالية، غير أن المتلقي يمكن أن يتسامح في هذه الناحية؛ لأن العنعنة كانت طريقة القوم المفضلة للتيقن من الحقيقـة أو صـدق الخـبر، وكـل عصـر لـه منهجه الخاص في الفن والعلم، وكذلك لكل زمان ذوقه، ونوع ثقافته،ومن العبث أن نفرض ذوقنا على الآخرين الذين مضوا والذين سيأتون. وعندما يتغاضى القارئ المعاصر عن هذه الناحية، ويعكـف علـى المتون فإنه يستخرج منها صورة جيدة لأبي حنيفة النعمان.

أما التقييم الشامل لهذه السيرة فيظهر أن السـيرة مكتملـة مـع الهـدف المتبـع، وهـو إظهـار المناقب والفضائل التي للرجل، وليس الجوانب الأخرى، ولا شك أن كـل ابـن آدم خطـاء، كمـا قـال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولكن كتاب المناقب كانوا يركزون على الناحية الإيجابية فحسب؛ لأن طريقتهم وهدفهم يختلفان عن طريقة المعاصرين وهدفهم في كتابـة السـيرة؛ إن السـيرة المعـاصرة ترسـم صورة إنسان حي، يصارع، فينتصر وينهزم، ويتفاءل ويتشـاءم، ويصيـب ويخطـىء، ولكنـه لا ييـأس أبدا، وإذا يئس فإن الكاتب يعلل ليأسه، ويشرح سبب قنوطه، فيقرب الشخص من قلوبنا.

على أن السير الإسلامية عامـة لم تكـن هـي الوحيـدة آنئـذ الـتي تـرى الجـانب المضـيء في أبطالها، وتغمض عينيها عن الجوانب الأخرى، وإنما كانت السـير في العصـور الوسـطى الأوربيـة، لا سيما سير القديسين كانت تركـز علـى النواحـي الإيجابيـه فقـط، بـل إنهـا كـانت تضيـف إلى هـؤلاء الأشخاص كرامات، ترفعهم إلى حد التنبؤ والصدق في النبوءات، حتى يشـعر القـارئ أنـه أمـام مـلاك وليس أمام شخص كان يدب على هذه الأرض، مما حدا بالنقاد أن يسـخروا مـن هـذا النمـط في كتابـة

السير. على أية حال فإن فن السيرة عند المسلمين جدير بالبحث والدرس، وبحثي هذا لبنة في هذا المجال.

إنه من الضروري أن ندرس السير من الوجهة الأدبية، لأن دارسي التاريخ قد درسوا جزءا كبيرا منها؛ لأنها تدخل ضمن مصادرهم، ولكن الدرس الأدبي مازال مترددا في تناولها، رغم تحرر الفكر في العصر الحديث، ورغم أنها تتناول وجهات نظر في الشخصيات المختلفة، فكل كاتب يكتب سيرة إنسان، إنما يقدم هذا الإنسان كما رآه هو، وليس كما هو في الحقيقة، من أجل هذا نرى سيرا كثيرة لبطل واحد، مثل هذه السير التي كتبت عن أبي حنيفة، وقد بلغت ثلاثا وعشرين سيرة، بين مخطوط ومطبوع. إننا ندرس شعر المدح والهجاء، وجدير بنا أن نصنع مثل هذا، فندرس كل كتب السيرة والتراجم والفضائل والمناقب؛ لأنّها تتضمن قيما متنوعة، ولأنها نشاط إنساني حقيق بالاحترام.

وقبل الدراسة ينبغي نشر المخطوطات السيرية نشرا علميا، حتي يتم الدرس بناء على نص صحيح، ومن واجبنا الآن ونحن في مؤتمر أبي حنيفة أن ندعو إلى نشر كل المؤلفات المخطوطة التي كتبها كاتبوها عن أبي حنيفة في اللغات المختلفة، وليس في اللغة العربية وحدها، وإن كانت المخطوطات العربية هي المقدمة في ذلك؛ لأن غيرها نقل منها أو ترجمة لها.

ملحق

وقد ألحقت هنا قائمة بأسماء المؤلفات في حياة أبي حنيفة قبل العصر الحديث، منها المخطوط والمطبوع، لمن أراد أن يواصل البحث في حياة الإمام، وها هي ذي عناوين الكتب التي كتبت عن حياة الإمام الأعظم، وهؤلاء هم مؤلفوها مرتبون تاريخيا:

١- أول من صنف في مناقب إمامنا الأعظم أبي حنيفة النعمان بن ثابت الكوفي هو أحمد بن الصلت المتوفى سنة ٣٠٨هـ، أطنب فيه إلى الغاية، وقد ضعفّه الخطيب في **تاريخ بغداد**.

٢- أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الطحاوي المصري المتوفى سنة ٣٢١هـ.

٣- القاضي محمد بن الحسن بن كأس أبو القاسم المتوفى سنة ٣٢٤هـ، ألف كتابه في مناقبه، وسماه **تحفة السلطان في مناقب النعمان**.

٤- الحافظ أبو العوام عبد الله بن محمد بن أحمد السعدي المعروف بابن العوام، ألف كتابه: **فضائل أبي حنيفة وأصحابه**.

٥- أبو محمد عبد الله بن محمد بن أحمد الحارثي البخاري المتوفى سنة ٣٤٥هـ، ألف كتابه: **كشف الأستار**.

٦- أبو يحيى زكريا بن يحيى النيسابوري ألف كتابا في **مناقب أبي حنيفة**.

٧- أبو أحمد محمد بن محمد بن أحمد الشعبي النيسابوري المتوفى سنة ٣٥٧هـ وضع كتابا في **فضائل أبي حنيفة** في عشرين جزءا.

٨- أبو عبد الله أحمد بن على الصيمري المتوفى سنة ٤٣٦هـ ألف **أخبار أبي حنيفة وأصحابه** وفرغ منه في رمضان سنة ٤٠٤هـ.

٩- أبو يعقوب يوسف بن أحمد بن يوسف المكي الصيدلاني ألف كتابا في **مناقب أبي حنيفة**، نقل عنه ابن عبدالبر في **الانتقاء**.

١٠- أبو عمر يوسف بن عبدالبر الأندلسي المتوفى سنة ٤٦٢هـ ألف **الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء**.

١١- علي بن عبدالعزيز ظهير الدين المرغيناني المتوفى سنة ٥٠٦هـ كتب كتابا في **مناقبه**.

١٢- جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ صنع كتاب **شقائق النعمان في مناقب النعمان**.

١٣- موفق الدين بن أحمد بن محمد بن سعيد المكي المتوفى سنة ٥٦٨هـ ألف كتابا مفصلا في **مناقب أبي حنيفة**، ورتبه على أربعين بابا.

١٤- أبو المظفر يوسف بن عبدالله، سبط بن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤هـ كتاب **الانتصار والترجيح للمذهب الصحيح** نشر بمصر، وهو في ترجيح مذهب أبي حنيفة، وكذلك صنع **الانتصار لإمام أئمة الأمصار**.

١٥- محمد بن محمد الكردري البزاز المتوفى سنة ٧٢٧هـ ألف كتابا في **مناقب أبي حنيفة**.

١٦- أبو عبدالله الذهبي المتوفى سنة ٧٤٥هـ ألف جزءا في **مناقبه**.

١٧- عبد القادر القرشي المتوفى سنة ٧٧٥هـ، ألف **البستان في مناقب النعمان**.

١٨- جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ وضع: **تبييض الصحيفة في مناقب أبي حنيفة**. طبع ضمن الرسائل التسعة له في دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد.

١٩- أحمد بن حجر الهيتمي المكي الشافعي المتوفى سنة ٩٧٣هـ، ألف: **الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم النعمان**.

٢٠- شرف الدين القربتي اليماني، من رجال المئة العاشرة، ألف: **عقود المرجان** ثم اختصره وسماه **قلائد عقود الدرر والعقيان في مناقب أبي حنيفة النعمان** ثم ألف **الروضة العالية المنيفة في مناقب الإمام أبي حنيفة**.

٢١- محمد بن يوسف الصالحي الدمشقي، نزيل البرقوقية، المتوفى سنة ٩٤٢هـ، ألف كتابه: **عقود الجمان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان**، وهو من أحسن ما ألف في مناقب الإمام.

٢٢- علي القاري المتوفى سنة ١٠١٤هـ، له كتاب في **مناقب أبي حنيفة**، وقد طبع في آخر **الجواهر المضية**.

٢٣- السيد مرتضى الزبيدي، له كتاب **الجواهر المنيفة في مناقب أبي حنيفة**[٨٢].

* * *

هوامش

١- **أخبار أبي حنيفة وأصحابه**، لأبي عبدالله حسين بن علي الصيمري المتوفى سنة ٤٣٦هـ، نشره إدارة ترجمان السنة، لاهور، باكستان.

- **تاريخ بغداد**، لأبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣هـ، نشره دار الكتاب العربي، بيروت.

- **مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة**، للموفق بن أحمد المكي المتوفى سنة ٥٦٨هـ، نشره مولوي محمد أمير حمزة، باكستان، ١٤٠٧هـ.

- **مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة وصاحبيه أبي يوسف ومحمد بن الحسن**، لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ، نشرة لجنة إحياء المعارف النعمانية، حيدر آباد الدكن، الهند.

- **مناقب الإمام الأعظم** لمحمد بن محمد بن شهاب المعروف بابن البزاز الكردري، المتوفى سنة ٨٢٧هـ، نشرة مولوي محمد أمير حمزة، باكستان، ١٤٠٧هـ.

٢- **لسان العرب**، لابن منظور، دار المعارف، مصر، مادة: سير.

٣- **الفنون الأدبية في العصر العباسي**، د. شعبان محمد مرسي، إسلام آباد، باكستان، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص ٤.

٤- **لسان العرب**، مادة: رجم.

٥- **التراجم والسير**، محمد عبدالغني حسن، دار المعارف، مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠م، ص ٩.

٦- **تاج العروس**، للزبيدي، باب الباء، فصل النون. **لسان العرب**، مادة: نقب.

٧- **لسان العرب**، مادة: فضل، أيضاً انظر:
Encyclopedia of Islam, Brill, Leiden: Sira, Manakib, Fadila< Mathalib.
الطبعة الأولى مختصرة، والطبعة الجديدة موسعة، ولكنها لم تكتمل حتى الآن.

٨- عن الخبر وأغراضه واحتماله الصدق والكذب، انظر **البلاغة الواضحة**، علي الجارم ومصطفى أمين، كراتشي، بدون تاريخ، ص ١٤٤-١٦٦.

٩- Petit Larousse illustre, 1983, Paris, P. 117.
Dictionary of Literary terms and Literary Theory, J.A. Cuddon, England, New Edition, 1991, P.91.

١٠- Diccionario de uso del Espanol, Maria Moliner, Gredos, Madrid, 1988, P. 17. Vol. 2.

١١- **التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا**، عبدالرحمن بن خلدون، دار الكتاب اللبناني والمصري، ١٩٧٩م.

١٢- **الفصول في سيرة الرسول**، إسماعيل بن عمر بن كثير المتوفى سنة ٧٧٤هـ، تحقيق سيد بن عباس الجليمي، دار الصفا، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ٣.

١٣- **السيرة النبوية**، لأبي محمد عبدالملك بن هشام المعافري المتوفى بمصر سنة ٢١٣هـ، تحقيق محمد فهمي السرجاني، المكتبة التوفيقية بالقاهرة.

١٤- **الفنون الأدبية في العصر العباسي**، ص ٨-١٩.

١٥- **سيرة عمر بن عبدالعزيز**، لأبي محمد عبدالله بن عبدالحكم، المتوفى سنة ٢١٤هـ، نشرها أحمد عبيد، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية، سنة ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.

١٦- **صحيح البخاري**، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري، طبعة دار الشعب، سنة ١٣٧٨هـ، ج ٢/٥.

١٧- السابق، ج ٣/٥.

١٨- السابق، ج ٥/ ٣٧.

١٩- **الجامع الصحيح**، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري المتوفى سنة ٢٦١هـ، طبعة دار التحرير، القاهرة، ج ١٠٨/٧-١٩٢.

٢٠- **فضائل مصر**، عمر بن محمد بن يوسف الكندي، تحقيق إبراهيم العدوي وعلي محمد عمر، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

٢١- **الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة**، لابن ظهيرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، طبعة دار الكتب، ١٩٦٩م.

٢٢- **الفهرست**، لابن النديم، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص ١٥٣-١٥٤.

٢٣- **مثالب الوزيرين**، أبو حيان التوحيدي.

٢٤- **أخبار سيبويه المصري**، لأبي محمد الحسن بن إبراهيم بن زولاق، المتوفى سنة ٣٨٧هـ، طبعة القاهرة.

٢٥- Plutaroch, parallel Lives of Noble Greeks and Romans ترجم إلى كثير من اللغات الحية، ومنها اللغة الإسبانية بعنوان:

Plutarco, Vidas Paralelas, Colleccion Austral, Espasa Calpe, Madrid, No.1148.

٢٦- Encyclopedia International, Vol. 3. P. 23, Biography.

٢٧- **أوجه السيرة**، أندريه موروا، ترجمة ناجي الحديثي، ص ٨٤-٨٥.

٢٨- The Art of Biography, Paul Murray Kendal, New York, 1967, P. 8

٢٩- السابق P. X.

٣٠- **أوجه السيرة**، ص ٢٧.

٣١- Quintessence of Literary essays and viva voce, W.R. Goodman, Kitab Mahal, Urdu Bazar, Lahore, Pakistan, Part IV, P. 82.

٣٢- **التراجم والسير**، ص ٢٣.

٣٣- **أوجه السيرة**، ص ١٠٦.

- **الأدب المقارن، أصوله وتطوره ومناهجه**، د. طاهر مكي، دار المعارف مصر، سنة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص ٥٢٥.

٣٤- The New Encyclopedia Britannica, Vol. 2, P. 1013.

٣٥- **أخبار أبي حنيفة وأصحابه**، ص ١.

٣٦- السابق، ص ٣.

٣٧- **أبو حنيفة بطل الحرية والتسامح في الإسلام**، عبدالحليم الجندي، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

٣٨- **أخبار أبي حنيفة وأصحابه**، ص ٣.

٣٩- السابق، ص ٨٧.

٤٠- **مناقب الإمام الأعظم** للموفق المكي، ١/٥٥.

٤١- **مناقب الإمام الأعظم** للكردري، ١/٦٨.

٤٢- **أخبار أبي حنيفة وأصحابه**، ص ٢.

٤٣- السابق، ص ٣.

٤٤- السابق، ص ٣.

٤٥- **مناقب الإمام الأعظم** للكردري، ١/٢٢.

٤٦- **مناقب أبي حنيفة**، للموفق المكي، ١/٢٠٦.

٤٧- **مناقب أبي حنيفة وصاحبيه**، للذهبي، ص ١٥.

٤٨- **الخيرات الحسان في مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان**، شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي المكي المتوفى سنة ٩٧٣هـ، الطبعة الثانية، كراتشي، باكستان، ص ٣٨.

٤٩- **مناقب أبي حنيفة**، للذهبي، ص ١٠.

٥٠- السابق، ص ١٠.

٥١- **مناقب أبي حنيفة**، للموفق المكي، ١/٢٥٧-٢٥٨.

٥٢- **مناقب أبي حنيفة**، للذهبي، ص ١٤.

٥٣- **مناقب أبي حنيفة**، للكردري، ١/٥٥.

٥٤- **مناقب أبي حنيفة**، للموفق المكي، ١/١٠٦.

٥٥- السابق، ١/٧٧، وانظر: **الخيرات الحسان**، ص ٢٦-٢٧.

٥٦- **تاريخ بغداد**، ١٣/٣٨٧.

٥٧- **مناقب أبي حنيفة**، للموفق المكي، ١/٨١.

٥٨- **الأربعين النووية**، الحديث الثاني.

٥٩- **مناقب أبي حنيفة**، للموفق المكي، ١/٨٤-٨٦.

٦٠- **تاريخ بغداد**، ١٣/٣٥٢.

٦١- **مناقب أبي حنيفة**، للموفق المكي، ١/١٩٦.

٦٢- **الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان**، ص ٣-٤.

٦٣- السابق، ص ١٤-١٥، وانظر: **مناقب أبي حنيفة**، للموفق المكي، ١/١٠.

٦٤- **تاريخ بغداد**، ١٣/٣٣٦.

٦٥- السابق، ص ١٣/٣٩٥.

٦٦- **الأصول الفنية للأدب**، عبدالحميد حسن، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م، ص ١٥٥.

٦٧- **مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه**، للذهبي، ص ٢٢، وانظر: **الخيرات الحسان**، ص ٢٦، **والمنام في مناقب الكردري**، **والموفق المكي** أيضاً.

٦٨- **مناقب أبي حنيفة وصاحبيه**، للذهبي، ص ٣٢-٣٣.

٦٩- Reves Pathogenes dans les societes non occidentales, Georges Devereux, in Von grunebaum, le reve.

نقلا عن: **بناء النص التراثي**، دراسات في الأدب والتراجم، د. فدوى مالطي دوجلاس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ١٥٥.

٧٠- **تاريخ بغداد**، ١٣/٤٢٣.

٧١- Jung, Psychology and Religion, P. 12-13.

نقلا عن، **بناء النص التراثي**، هامش رقم ٣٠، ص ١٥٤.

٧٢- **تاريخ بغداد**، ١٣/٤٠٣.

٧٣- **الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان**، ص ٦٥.

٧٤- **مناقب أبي حنيفة وصاحبيه**، للذهبي، ص ٢٤.

٧٥- **مناقب أبي حنيفة**، للموفق المكي، ١/١٢٦.

٧٦- السابق، ١/١٠١-١٠٢.

٧٧- **الخيرات الحسان في مناقب أبي حنيفة النعمان**، ص ١٣.

٧٨- **مناقب الإمام الأعظم**، للكردري، ١/٤٩، وقد ذكر هذه الرسالة حاجي خليفة في كتابه: **كشف الظنون**، في فصل الرسائل.

٧٩- السابق، ١/٤٩.

٨٠- **تاريخ بغداد**، ١٣/٣٢٦-٣٢٩.

٨١- السابق، ١٣/٣٢٩-٣٣٠.

٨٢- هذه القائمة مأخوذة من هذه الكتب:

أ- **كشف الظنون**، لحاجي خليفة.

ب- مقدمة ناشر كتاب: **أخبار أبي حنيفة وأصحابه**.

ج- **الأعلام**، للزركلي.